لينا هَويان الحسن

حاكمة القلعتين

عن جِنّيَات وساحِرات الشّام وعرّافاتِهَا ..

روايـة

دار الآداب

حاكمة القلعتيْـن

(خرافات حميمة عن الساحرات والعرَّافات

وساكنات قلاع الشام)

لينا هَويان الحسن

حاكمة القلعتينْ

(خرافات حميمة عن الساحرات والعرّافات
وساكنات قلاع الشام)

رواية

دار الآداب

حاكمة القلعتيْن

(خرافات حميمة عن الساحرات والعرّافات
وساكنات قلاع الشام)

لينا هَوْيَان الحسن / روائيَّة سوريَّة

الطبعة الأولى عام 2022
ISBN 978-9953-89-729-5

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيِّ جزءٍ منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقلِه بأيّ شكل من الأشكال، من دون إذنٍ خطّيٍّ مسبَّق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة
موقعنا www.daraladab.net
يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:
info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab Instagram: @daraladab Twitter: @DarAlAdab

تصريح واعتراف وإهداء

تصريح

الخرافات والأساطير عالمٌ ممتع، يُغذِّي الروح طالما أنَّنا لا نخلط بينه وبين الحقيقة.

اعتراف

اثنتان من ذكرياتي: تثبتُ الأولى منهما أنَّ الأدب هو الابن المدلَّل للذاكرة، والثانية تنفلت في وجهي كلَّما كتبت: الوطن، ليس قطعة أرضٍ ولا فصلًا من التاريخ، هو اشتياق.

أصارحكم بشأن أوَّل ذكرى:

حصلتُ قبل أكثر من عشرين سنة على هديَّةٍ غير عاديَّة إطلاقًا: مصاغٍ ذهبيٍّ غامض: سلسالٍ يحمل «نابًا». قالت لي تلك المرأة التي يخشاها الجميع إنَّه ناب ذئبة؛ وثرثر من حولها إنَّه نابُ ضبع. سُرق «الناب» منِّي مرَّتيْن بسبب خرافاتٍ تتعلَّق به، أهمُّها أنَّه يرصد حامله ويؤذي من يتعرَّض له. كان موكلًا له خدَّام وأعوان، ومقروءًا عليه تعاويذ سحريَّة لا يعرف سرَّها أحد. ولأنَّ الناب كان محضَّرًا وفق أحرف اسمي واسم أُمِّي! فكان يغدو عبئًا على من قد يتَّخذه غيري. هكذا أُعيد إليَّ مرَّتيْن مع اعتذار.

الذكرى الثانية:

عاد «الناب» إليَّ بعد سرقته للمرَّة الثانية، أُعيد مخفورًا وملفوفًا بقطعة المخمل ذاتها التي رافقته دائمًا، ووصلني في صيف 2017، وعدت أُحيط به عنقي وأروي قصَّته مرَّةً أخرى. لقد أصرَّ على العودة دائمًا..!

ظهور الناب وعودته إلى حياتي كان ضربة البرق التي حرثت ذاكرتي وجعلتني أُقرِّر كتابة هذا النصّ. أُصرُّ عليكم: الخرافات ممتعة طالما تبقى حكايات.

إهداء

استغرق العمل على هذا النصّ أكثر من ثلاث سنوات. لم أكن وحدي، كانت معي في كلِّ تطوُّراته الناشرة والصديقة رنا إدريس، وحُسمت مرحلته الأخيرة بانضمام المبدعة نجاح طاهر التي ساعدتني على منحه مظهره الأخير برؤيتها الفريدة.

أخيرًا.. هنالك ملاحظة لا بدَّ منها: وردت معلومات بين دفَّتيْ هذا الكتاب تُدوَّن لأوّل مرَّةٍ حول تعاليم السحرة وأسرارهم. إذن هي حقٌّ شرعيٌّ لكاتبها، ولا أتمنَّى أن تقتبس «خبايا السحرة» دون الإشارة إلى هذا المصدر، الذي جُمعت ـ بمشقَّةٍ كبيرةٍ وصبرٍ وامتنان ـ معلوماته مشافهةً من أفواه بشرٍ لم يكونوا عاديِّين أبدًا.

هنا، بعضٌ من حقيقة وكثيرٌ من الخيال.

فمرحبًا بكم في نصٍّ كتبتُه لأنِّي أؤمن أنَّ السعادة هي غاية الحياة على هذه الأرض.

عرّافة الفُرات

والساحرة المولودة في حقبة أميرة المغول

تلتقي كلّ الخيوط هنا بين قلعتيْن، وعلى ضفَّة نهرٍ عظيم. أرضٌ حكمتها امرأةٌ غاشمة، شرِّيرةٌ وقاتلة، مستبدَّة. كان ينبغي أن أتتبَّع أثرًا لامرأةٍ اختفت، شبحًا غير مرئيّ. كلّ من لمح شبحها أخافته تلك الحيَّات المشرئبَّة من قلنسوتها. على الرَّغم من ذلك، يسبقها عطرٌ ويتبعها عطر! ما هذا اللغز؟ كيف يمكن للنساء أن يتحوَّلن إلى آلهةٍ وربَّاتٍ وخرافات، الشجاعات اللواتي يخرقن القوانين ويحافظن على البراءة!؟

يبوح الكتاب السرِّيّ للسحرة بأوصاف النساء المولودات في حقباتٍ سحريَّةٍ خالصة.

في عالم السحر يبدأ كلّ شيءٍ من جديد: تُمنح اسمًا جديدًا، وتتحوَّل أفكارك إلى تنانين تحملك عبر السحاب، يتبدَّل مضمونك، ويتطوَّر، ويكبر وينفتح، وتمسك بمعظم المفاتيح.

وطبعًا عندما يتغيَّر مضمونك يتغيَّر شكلك وهيئتك، ستكون ملامحك مطابقةً لما تُفكِّر وتحلم به، سيشبه وجهك نيَّاتك تجاه الآخرين. كلّ ما يتدفَّق من عمقك ينعكس على هيئتك كلّها من أعلى رأسك حتى أخمص قدميْك.

من السهل أن يولد أحدٌ جميلًا لكنْ من النادر أن يبقى كذلك، وأن يتحوَّل العاديّ إلى فاتنٍ نادرٍ لا مثيل له.. وهذا أمرٌ تنجزه الأفكار والنيَّات والمشاعر التي نضمرها للعالم.

بدأ كلّ شيءٍ من حقيقةٍ أو خرافةٍ أو كذبة تقول: «إنِّي ولدتُ في حقبة أميرة المغول»!؟

إذن ليست حياتي الأولى!

نولد عدَّة مرَّات، وآخر مكانٍ وزمانٍ وُلدنا فيهما يحدِّدان زماننا القادم، وأنتِ عشتِ آخر طورٍ في زمن أميرة المغول.

من هي؟ وأيّ زمن!؟

ستكتشفين بنفسك.

لم تُخبرني أُمِّي الداهية كحيَّةٍ ملساء إلَّا بالقليل، وتُردِّد دائمًا: «ستتعرَّفين أسرارك بنفسك».

من منكم وُلِد وأُمُّه ساحرة؟!

علَّمتني كيف أقرأ الفلك وكيف أقرأ قلوب الآخرين، وأسافر عبر السماء وأحمِّل كلامي للرياح. لكلِّ شيءٍ لونٌ ورائحة حتى الكلمات. يؤمن السَّحرة بمفعول الأحرف. درَّبتني بقسوةٍ وعنادٍ على «الدِّقَّة». كيف أُنجز كلّ شيءٍ بدقَّة. على كلِّ شيءٍ نفعله أن يشبه التنفُّس المنتظم.

كما أنَّني بارعةٌ في الطبخ والتنظيف والاعتناء بكلِّ شيء.

يمكنني تربية السلطعونات وتجفيف الخفَّاشات وحرقها وتحويل رمادها إلى ذرور، وأن أُذوِّب قرون الكباش وأصنع منها الصمغ، وأعرف نوع اليعاسيب التي توضع على الثآليل وتشفيها. يمكنني أن أشرح لكم مفعول «مرارة» كلّ حيوان.

أغرتني الدراسة الجامعيَّة في مدينة دمشق بأن أبتعد قليلًا عن خرافة أُمِّي وسطوتها وسلطتها وجاذبيَّتها، كنتُ لا شيء، لا أحد، أمامها. أردتُ أن أكون أحدًا له آراؤه وقناعاته. ببساطة أردت الاستقلال، التحرُّر.

لم يعلم أحدٌ في دمشقَ من أنا! ولم أرتكب حماقةً وأتحدَّث أنِّي وُلدت في مكانٍ غريب. منزلٌ مبنيٌّ من الطين ومدهونٌ بالحوَّارة البيضاء، مسيَّجٌ بالحجارة السوداء والطين، ويتوسَّط فِناءه برجٌ يسكنه الحمام، وبئرٌ عميقة فوَّهتها مغطَّاةٌ بِشَبَكٍ من الحديد؛ وبوائك فيها الماعز والأغنام وإسطبل للخيل.

كلّ هذا طبيعيّ. وكثيرٌ من أبناء سوريا الشماليَّة وُلدوا في بيوتٍ متشابهة. لكنْ من ذاك الذي اعتاد رؤية أُمّه تحلب الفرس عند ولادة كلّ قمرٍ جديدة؟! وتصبّ الشاي على التراب في أوقاتٍ قمريَّةٍ مُحدَّدة؟! لا، لا أحد!

لم تسمح أُمِّي بتمديد أسلاك توصل الكهرباء للحوش، ولم تكن تقبل بوجود أوانٍ من البلاستيك، وكانت تربِّي قطَّة بيضاء وحيَّةً حمراء وفرسًا شهباء! وهنالك الكثير من المرايا في منزلنا.

أُطعم الحمائم وأهتمّ بها، وكذلك أُطعم القطط البيضاء الكثيرة التي تراها في كلِّ ركنٍ وزاوية من الحوش. أمَّا الحيَّات الحمراء فهي تتدبَّر أمرها دون مساعدتي.

الزائرون . .

على الرَّغم من انعزال منزلنا عن بقيَّة منازل الضيعة، لكنَّني قابلت أصنافًا متنوِّعةً من البشر. الزائرون الذين يقصدون أُمِّي. نساءٌ ورجالٌ وشابَّات وفتيان وعجائز من مستوياتٍ مختلفة. بعضهم فقراء جدًّا. ولكنَّ الزوَّار في الغالب من مستوياتٍ ميسورة، وأولئك الذين يزورونا قادمين من حلب هم الأكثر ثراءً. رأيت معظم أنواع السيَّارات وأنماطًا مختلفة من البشر.

كانت مهمَّتي تقديم المياه للضيوف. وثمَّة سيِّدتان شقيقتان تساعداننا برعاية شؤون الحوْش. انحصرت مهمَّتي في الاعتناء بالحمائم، وبين وقتٍ وآخر يحتاجونني لأجل قطيع الديوك الروميَّة.

توصلني سيَّارة بيك آب، يقودها زوج إحدى السيِّدتيْن اللتين تخدمان أُمِّي، إلى المدرسة التي تبعد حوالى عشرة كيلومتراتٍ عن حوشنا.

لم يكن منزلنا يخلو مساءً من الزوَّار الذين تربطنا بهم الجيرة.

يدور الشاي الخمير على الحاضرين، تُسمع طقطقات تحريك السكَّر بالمعالق النحاسيَّة الصغيرة، يصمت الكلّ، تتبع العيون خطوات أُمِّي الماكرة المنسلَّة من زمنٍ آخر.

كان رأيي أنّني ابنة سيِّدةٍ محتالةٍ ذكيَّة وهي تمارس مهنةً انقرضت، وشبه محرَّمة وممنوعة رسميًّا. تعزف على وتر كآبة البشر وخوفهم. لكنْ من يفسِّر حقيقةَ أنَّها كانت تقول الحقيقة وكلّ تلك الحجابات التي تكتبها وتخيطها على شكل مثلَّثاتٍ ملبَّسةٍ بالجلد تؤتي ثمارها؟ هل تعلمون كم من تلك المثلَّثات الجلديَّة قمتُ بخياطتها!؟

أتذكَّر اليوم خاتون المغوليَّة، بكثيرٍ من الدهشة. كان لها وجهٌ مفعمٌ بجاذبيَّة الأشياء القديمة، لها فتنة خشب ساعةٍ من القرن التاسع عشر، أو بهاء خزانةٍ من الموزاييك، أو سحر ثريَّا بوهيميَّة. امرأة غريبة جدًّا، بشكلٍ لا يتصوَّره أحد.. بعينيْها اللتين تحملان لونيْن مختلفيْن: يومضُ الأخضر الزيتونيّ من عيْنها اليمنى، بينما عيْنها اليسرى تضجُّ بالعسليّ المصفرّ.

عوَّدتنا على تنقُّلها بين كنبتها المنخفضة والمغطَّاة بشرشفٍ من القطن صيفًا، وفي الشتاء تغطِّيها بالصوف، والموقد المكشوف حيث تبدأ بإضاءة شموعها التي يختلف عددها كلّ يوم. كذلك في ساعاتٍ مختلفة، فتُضاء شموع البيت يوم السبت في ساعة زحل، ويوم الأحد في ساعة الشمس، ويوم الاثنين في ساعةٍ ينساب صوتها جميلًا عميقًا. إنَّها فنَّانةٌ حقيقيَّةٌ بالكلام، لا يمكن لأحدٍ

نسيان صوتها الرخيم الموسيقيّ والذي تنغِّمه وتلحِّنه بأسلوبها.

لطالما كنتُ مسمَّرةً، مأخوذةً، بالكلمات المثيرة التي تخرج من الفم الناعم لتلك المرأة ذات الوجنتيْن البارزتيْن والذقن الناتئة المبعوجة بغمَّازةٍ عميقة.

لم تكن أُمِّي عرَّافةً وساحرة وحسب! كانت الحكَّاءة التي فَتَنَت الدنيا ذات يوم.

بتُّ اليوم أفهم معنى ما كانت تقوله لي عن السحر: «السحر هو تواصل، لغة، أسلوب. الفرق بين السَّحَرة وبقيَّة البشر أنَّ معظم الناس لا يتكلَّمون، إنَّهم يثرثرون، يتبنَّون الأكاذيب وينقلونها ويزيِّنونها، أمَّا السَّحَرة فيمكنهم فعل الأعاجيب لأنَّهم يتكلَّمون ولا يثرثرون».

كانت أُمِّي تصوم عن الكلام لعدَّة أيَّام. تستحمّ بالصمت: «يجب أن أُخبر الناس الحقيقة لا الأكاذيب. الحقيقة أنثى مترفِّعة سامية لا تحضر بسهولة».

أتذكَّرُ تلك الأمسيات الشتويَّة وقد اكتظَّت الكنبات بالحاضرين، وبعضهم قد افترش الأرض، بينما تقوم السيِّدتان العاملتان لدينا بتوزيع منافض السجائر واستكانات الشاي.

لدى خاتون المغوليَّة طريقتها في افتتاح جلساتها. كأنْ تخاطب الجميع وتُحدِّثهم بشؤون الحياة اليوميَّة، تفعل ذلك بمهارة من خَبِر وعرف كلّ أصناف البشر. قد يلفت انتباهها أحدُ الحاضرين أو الحاضرات، بحزنه أو شروده، فتختار أن تخاطبه، لكنَّها تقول شيئًا في الواقع هو من شأن الجميع.

كانت تستقبل الزوَّار الساهرين في أوقاتٍ منتظمة. مرَّتيْن في الشهر.

خاتون امرأةٌ لا تسهر إلَّا في أوقاتٍ مُحدَّدة من الشهر، ومعظم الأيَّام تنام مع مغيب الشمس لتستفيق مع بزوغ نجمة الصبح، أي قبل الفجر بساعة، وقبل شروق الشمس بساعتيْن أو ثلاث.

أصارحكم: تؤمن خاتون المغوليَّة بتقمُّص الأرواح.

تقول لقد تقرَّر كلّ شيءٍ يتعلَّق بتكويناتنا الجينيَّة والقدريَّة منذ زمنٍ بعيد. حتى لو وُجدنا في الألفيَّة العشرين، لكنْ كلٌّ منَّا يحمل إرثه في دمه وخلاياه والذاكرة المتوارية التي تسرِّبها لنا الأحلام. باختصار، تشبِّه أُمِّي تلك الأشكال للسيِّدات الخرافيَّات المرسومات على المرمر أو الفخَّار التي يُعثر عليها بين وقتٍ وآخر في إحدى الحفريَّات الأثريَّة، عندما تظهر امرأةٌ ذات تنُّورةٍ مشبَّكة تقف على لبؤتيْن ملتفتتيْن تجاه بعضهما بعضًا، وتبدو المرأة وهي تقبض بكلِّ يدٍ ثعبانًا فاغر الفم وعلى كتفها نجمةٌ وعلى الكتف الأخرى ثمَّة زهرة، كما أنَّ للمرأة جناحيْن! غريب.. أليس كذلك؟ إنَّها صورةٌ عن أُمِّي. لم أشكّ قطّ بقدرتها على الطيران. إنَّها كائنٌ هوائيٌّ من نسل الملك السومريّ «سبّار» الذي زار السماء، وتلقَّن أصول فنِّ الفأل والعرافة.

فلنعد إلى غرابة وعجب المنزل الغريب الذي عشتُ فيه ذات يوم. لا تغادرنا الأمكنة حتى لو غادرناها. لا يمكن لأحدٍ أن لا يتوقَّف أمام المكان العجيب الذي استنشق هواءه. الأمكنة كالأفراد، تُعشق أيضًا، تمسك بنا!

عشتُ بين قلعتيْن. . هما حلبيَّة وزلبيَّة على ضفاف الفرات في الشمال السوريّ

لأُمِّي قصَّةٌ وللقلعتيْن قصَّةٌ ولحياتي قصَّة. قصَّتنا هي كلّ شيءٍ نعرفه عن أنفسنا، وقصَّةٌ يمكننا أن نصنعها.

حذَّرتني دائمًا من تلك اللحظة التي أجد نفسي أبحث عمَّا فُقِدَ منِّي! أو أن أخاف من أن أكون وحدي! أو أن أبحث عن حرِّيَّتي، أو أخاف من ارتكاب الأخطاء!

عندما نضيِّع شيئًا نعثر عليه بالكلمات.

أنا ابنتها الوحيدة، لم أعرف أبي الذي توفِّي مبكِّرًا في حادث سيَّارة. أُطيعها في كلِّ شيء. كبرت وأنا أُراقب وأُصغي. تلقَّيتُ تعليمي في مدينة دمشق. درست الفلسفة. قصدتُ القلعتيْن قبيل اقتحام فصائل داعش المجرمة للمنطقة، لأحمل أُمِّي على المغادرة.

أكتب اليوم ما أكتب بعد أن فقدتُ أثرها، اختفت، لم أعثر عليها. أين عرَّافة الفرات، خاتون المغوليَّة!؟ قمت بتلك الرحلة الخطيرة إلى الديار، خاطرتُ بحياتي. يومها كان أفراد «داعش» يدمِّرون ويقتلون ويسبون النساء، ينهبون، يفتكون، يخرِّبون.

لم يكن ذلك غير متوقَّع، فقد تنبَّأت أُمِّي بقدومهم. قالت إنَّها مطالع القرون ونحن نعيش عهد برج الحوت من عصر الحوت، وهو آخر عهدٍ لعصر الحوت. وقتٌ هدَّام، نحن مقبلون على نهاياتٍ كبرى، نعبر عتبةً قد تنهي الوجود البشريّ برمَّته! كلامٌ مرعب، نبوءةٌ محزنة! وهذا العهد له اثنتا عشرة مرحلةٍ برجيَّة، وكلّ مرحلة تتكوَّن من خمس عشرة سنة. وهذه مرحلة الجوزاء التي بدأت في 2010 وستنتهي في 2025. كانت قد تنبَّأت بتدمير مدنٍ تاريخيَّةٍ كالموصل وحلب وحمص وتدمر. إنَّه وقت العودة إلى العقائد، والانتقامات. ستعلو أيدي أولئك الذين يخشون الحضارات والتنوير، سيدمِّرون ويخرِّبون، ستطال أيديهم حجارة الماضي الماجدة.

كلّ من يقول شيئًا عن المستقبل يخشاه البشر ويحاكمونه، ويتَّهمونه بالشعوذة. لم أُخبر أحدًا قطّ أنَّ أُمِّي هي خاتون المغوليَّة.

تجوَّلتُ يومها بين أشجار الرمَّان والتِّين والدفلى والزيتون التي تزدحم في حوشنا. كلّ شجرة رمَّانٍ دُفنت أسفل جذورها قرون كبش. لهذا، كان رمَّان حوشنا يرمي بثمره قبل الأوان، ويُثير دهشة الزوَّار.

هبطتُ إلى سراديب المؤونة. كان كلّ شيءٍ على حاله: جرَّة

العسل المغطَّاة بالصوف حتى لا يقربها النمل. أوانٍ فخَّاريَّة وزجاجيَّةٍ مختلفة الأحجام والأشكال أعرف معظم ما تحويه: هنا هذه القلَّة فيها مرارة ذئبٍ مطبوخة، وتلك مليئة ببعر ماعزٍ جبليٍّ، وذرورٍ من رماد قرونها. اصطفَّت قوارير البخُّور بانتظام. الرفّ العلويّ لبخُّور الموانع: كندروس ومقل أزرق وقسط وحبق وميعة كنت قد سحقتها بنفسي، وبأناملي كتَّلتها حبوبًا كالحمُّص ونشَّفتها في الظلِّ ثم عبَّأتها في القوارير.

كلّ شيءٍ دائريٍّ في منزلنا: النوافذ، الأبواب والمرايا. لا نوافذ فيه في الواقع، إنَّما ثغرات مستديرة صغيرة موزَّعة في كلِّ بدن البيت الطينيّ، وتُسمِّي أُمِّي الواحدة منها: «طاقة». مغرمة بالدوائر ومؤمنة بها، لأنَّها تسهِّل مرور الكائنات اللامرئيَّة التي تتحرَّك حولنا ومنها الأرواح!

في دمشق، عرفتُ أنَّ أُمِّي شهيرةٌ بحقٍّ. كان قد طار اسمها في كلِّ بقاع سورية.

كان عليَّ أن أحزر ذلك، وإلَّا كيف تُفسَّر حالات زياراتٍ من دولٍ عربيَّةٍ بعيدة؟! لم تكن أُمِّي وحدها، هنالك منافسات، لعلَّ أشهرهنَّ كانت: ثريَّا العسليَّة. كانت أُمِّي واحدة من أشهر العرَّافات في سورية.

لربَّما لا ينطق العرَّاف بالحقيقة، لكنَّ البشر يخشون الكلمات. يتحاشون كلّ ما قد يخرِّب الأكاذيب والأوهام التي يعيشونها.

فكَّرت بالرجل الغامض الذي كان يزورنا. لم ألمحه قطّ في النهار.

لماذا يزورنا هذا الرجل الغريب؟ سؤالٌ لم أجرؤ قطّ على طرحه أمام أُمّي.

قد أجد من لا يوافقني. فما كانت تقوله خاتون: «لا حليف لنا غير الجسد. أجسادنا هي الأكثر وفاء لنا علينا أن نُسعدها، نُدلِّلها. إذا لم نلبِّ رغباتها فإنَّنا ننتهكها ونُحوِّلها إلى عدوٍّ، عدوٍّ لا يرحم، سنمرض ونبكي ونتألَّم. نسعد على قدر ما تتلذَّذ أجسادنا».

لطالما شغلتْ بالي الحقب السحريَّة التي تولد بها النساء العرَّافات.

ثمَّة انتقاءٌ طبيعيٌّ ولغةٌ تقولها أشعَّة اقترانات الكواكب، والتي تحدث كلّ عشرين سنة. هنالك الاقتران الأوسط الذي يحدث كلّ مئتيْن وأربعين عامًا، والاقتران الأكبر الذي يكون فقط كلّ تسعمائة وستِّين عامًا.

يولد العرَّافون الكبار في بقاعٍ مختلفة من الأرض وفي توقيتٍ واحد: كلّ تسعمائة وستِّين عامًا. وهؤلاء هم سحرة وشامانات يذيع صيتهم على نحوٍ لا يمكن لأيِّ زمانٍ أو تاريخٍ تجاهلهم. وكلّ مئتيْن وأربعين عامًا تولد دفعةٌ جديدة من العرَّافين. تحمل دماؤهم وأجسادهم جينات من ولدوا أيضًا تحت أشعَّة اقترانات الكواكب. وكلّ عشرين سنة تمنح اقترانات الكواكب الأضعف بصَّارين وسَحَرة جددًا، ولكنَّ هؤلاء تكون قدراتهم أقلّ لكنَّها واضحة وغير قابلة للشكّ.

تقرأ خاتون المغوليَّة «الهيلاج» ـ هو مخطَّط الأبراج للناس في أحداثهم اليوميَّة، لكنَّها في الاقترانات، كانت تقرأ التوقُّعات

للمجتمعات ككلّ. وتحت تأثير لقاءات الكواكب تحضر الطلاسم والتمائم وقلائد العنق.

بعد سنواتٍ طويلة من اختفائها، أُفكِّر: هل قرأت أُمِّي كتب الهنود واليونانيِّين والبابليِّين والكلدانيِّين والمصريِّين عن أسرار الرقى والتمائم؟! طبعًا لا، تلقَّنت ذلك وورثته..

يمرّ أمام منزلنا نهر الفرات على بعد حوالى ثلاثمئة متر من أرضٍ منبسطة تنتهي بجروفٍ كلسيَّةٍ بيضاء، تنحدر صوب المياه. على يميننا قلعةٌ وعلى شمالنا قلعةٌ أخرى.

قلعتان شهيرتان تذكرهما كتب التاريخ، هما حلبيَّة وزلبيَّة. ويمكنكم البحث في «غوغل» ورؤية قلعتيْن لا أروع منهما.

ليست القلعتان خرافة. هما حقيقة. لكنَّ الخرافة هي شيءٌ آخر. الخرافة قصصٌ غريبة تتعلَّق بالقلعتيْن.

مرَّت سنوات على فقدان أثر خاتون. لطالما فكَّرت بهيئتها! كيف كانت ستبدو، الآن؟! آخر مرَّةٍ رأيتها كانت في عمر الستِّين. لكنَّ مظهرها لم يكن يبدو كذلك. تُعطي ملامحها انطباعًا عن سيِّدةٍ بالكاد تجاوزت منتصف أربعينيَّاتها.

كانت تُردِّد: «الحياة الرغيدة هي أنْ لا نعيش إلَّا مع من لا نشعر بمرور الزمن معهم. إنَّ أعمارنا تختلف. «نكبر ونصغر» تبعًا للأشخاص الذين نكون معهم. نشبه من نعاشرهم. الملل هو سبب الخطوط والتجاعيد التي تنزرع في وجوهنا.

رأيتها في مناماتي مرَّاتٍ كثيرة. الأحلام هي إجابات على رسائل نرسلها ونستلم أجوبتها على شكل صور. هذا ناموس السَّحَرة.

كانت خاتون تتقن أصول التعزيم السحريّ. تفعلُ ذلك بأربع طرق: بالقلائد أو بالتمائم أو باللعنات أو بالحروف.

رأيت بأمِّ عيني تأثير الترانيم والكلمات على البشر والحجر. كانت أُمِّي قادرةً على استدعاء قوى مستترةٍ رهيبة. تؤمن بأرواح الكواكب، تصرف لها وقتًا من التأمُّلات والصلوات والأضاحي والبخُّور. بارعةٌ بجلب السحر أمام الحاضرين وتحريك الأشياء عن بُعد. بارعةٌ في معرفة السارق وأحيانًا القاتل.

كان أوَّل شيءٍ تفقَّدتُه في حوشنا الغرفة السرِّيَّة. هي غرفة خلوتها التي كانت تعتزل فيها أحيانًا لأكثر من ثلاثة أيَّام. لم يتغيَّر شيء. قماش قطنيّ أبيض يغطِّي كلّ الجدران، الأرض والسقف والحوائط.

طبقُ خزفٍ صينيٌّ لا زخرفة عليه، يتوسَّط الغرفة. محارق بخُّور. وبُسُط ومفارش بسيطة للغاية تؤثِّث محيط الغرفة.

قوانا الخفيَّة هي مناخات واهتزازات عزيزة لا تحضر بسهولة.

لكلِّ شيءٍ سرٌّ يجذبه وقوانا اللامرئيَّة تُستدعى بروائح عطرة: اللبان الذكر والمستكة والعنبر والمسك والزعفران والجاوي وبخُّور الزئبق الأحمر.

لم أتحرَّر يومًا من تربيتي: أُشعل كلّ صباحٍ عود الصندل لأجل سلامي اليوميّ وسط المدينة. تهَدِّئ الروائحُ الروحَ. أحرق القرنفل لإبعاد ذبذبات وطاقات الغيرة والحسد. أستحمُّ بانتظام بالملح، وأشطف منزلي بمياهٍ قرأتُ عليها تعازيم الوقاية والحماية

السرِّيَّة، والتي لم أَبُح بها لأحدٍ في يوم. وأحتفظ بآوانٍ فخَّاريَّة للاستحمام، ولا أستقبل مياه المرشَّة من فوق رأسي مطلقًا.

للسَّحَرة لغةٌ عجيبة لا يستطيع أيّ أدبٍ أنْ يعبِّر عنها. عالمٌ متَّهم ومجهول. بقدر ما يجهله البشر يخشونه ويناصبونه العداء، على الأقلِّ رسميًّا.

لو كان السِّحر حقًّا هو جملة أكاذيب كما يزعم أعداؤه لما كان له كلّ هذا الكمّ من الأعداء، ولما سُنَّت القوانين التي تجرِّمه منذ أيَّام حمورابي. هذا واقعٌ لا يمكن إنكاره. والشيء الأكيد أنَّ السِّحر حكم الأرض برمَّتها قبل نشوء الحضارات التي نعرفها. وكلّ ما بقي منه شذرات وحسب تمَّ توارثها بسرِّيَّةٍ أودت أحيانًا بحياة حامليها.

لا يمكن إنكار الأسلاف اللامعين الذين سبقوا زمانهم وكشفوا عن قوى لامرئيَّة يمكن التحكُّم بها، والكشوفات الحديثة تؤكِّد حقيقة وجود الطاقة الخفيَّة التي تُحيط بنا ويمكننا استخدامها. كلّ ما في الأمر أنَّ التقنيَّة الحديثة ابتكرت أدواتٍ تلتقط هذه القوى، ومثال ذلك جهاز الريموت كونترول الموجود في كلِّ منزلٍ يُغيِّر المحطَّات بكبسة زرّ. ماذا لو أخبركم أحدٌ أنَّ السِّحر تفوَّق تمامًا على التكنولوجيا في زمنٍ مضى، والدليل قدرات السَّحَرة على تحريك الأشياء ونقلها عبر التمتمة بكلماتٍ وأحرفٍ مرقَّمة بانتظامٍ رهيب!

ألا تعتقدون أنَّ فهم ماضي البشريَّة هو «فنٌّ» بحدِّ ذاته؟! فنُّ الكشف عن الصلة بين الكلمة المنطوقة والقوى الخفيَّة الساهرة التي قد تكون إحدى أهمّ طرق الخلاص في الأزمان الحديثة التي

يفتك بها مرضٌ خفيٌّ لا أعراض واضحة له، هو «الاكتئاب». لربَّما كان في فنِّ الفهم والكشف عن قوى السِّحر عودةٌ للينابيع الفطريَّة الأولى. لربَّما آن الأوان أن نعتق «السَّحَرة» من عزلتهم.

ماذا لو اكتشفتم أنَّ السَّحَرة هم المتحرِّرون من قيود الحواس الخمس؟ هم من يتعدُّونها إلى وعيٍ شامل منفتحٍ جميل كمروحة ذيل الطاووس!

ماذا لو اكتشفنا أنَّ السِّحر هو دربٌ يقودنا صوب العمق، يغوص في داخلنا! كلَّما ذهبنا أعمق زادت قدرتنا على تجاوز حدودنا، نرتفع، نحلِّق، نوسِّع دائرة رؤيتنا ونُدرك ذلك الحضور الأسمى.

إذن تقبَّلوا ما سأرويه هنا بلغةٍ فانتازيَّة، بروحٍ منفتحةٍ ومرحِّبة.

أعطيكم كلمة شرف:

كتبت ما كتبت لأنِّي أردت مشاركتم الدهشة التي عشتها ذات زمنٍ مضى، وعالمٍ انكشفت لي بعض أسراره. اكتشفتُ أنَّ ذلك كان نعمة حياتي على نحوٍ ما. رأيتُ أنَّ ثمَّة عالمًا خفيًّا لامرئيًّا مغيَّبًا قد يساعد أبناء هذا الزمن على محاربة انطفاء الروح، وهذه سمة العصر. ووُجد الأدب كي لا يُحرم البشر من نعمة الخيال، وحتى يتمكَّنوا من العيش بهناءٍ في عالم الحقيقة. وُجد الفنّ لإسعاد النفس. كلّ ما يبدر عن الإنسان من شرٍّ سببه تعاسة روحه، لربَّما تغدو الحكايات دواءً مثلما كانت ذات زمنٍ مضى.

1

أشباح البنات
وحكاية المرأة حاكمة القلعتيْن:
«حلبيَّة وزلبيَّة» على ضفاف الفرات

يصل طول الشعر إلى مترٍ وأربعين سنتيمتر. ازدادت دهشة الشابَّيْن الآثاريَّيْن اللذين وضعا أدواتهما جانبًا وهما يقيسان طول الشعر الأجعد البنِّيّ المشوب بحمرةٍ خفيفة للغاية. حملت الرؤوس الثلاثة درجات لونيَّة شبه متطابقة، وبالطول نفسه. وكانت الأيدي موثَّقةً بأوشحةٍ حريريَّةٍ قرمزيَّة تحوَّل لونها بفعل الزمن إلى لونٍ كامدٍ وغامق، لكنْ ظلَّ القرمزيّ واضحًا. كذلك الأرجل رُبطت بالطريقة ذاتها.

غزت رأسيْهما الثرثرات الشائعة بين القرويِّين حول أشباح البنات التي تجوب خرائب حلبيَّة وزلبيَّة.

استبدَّ بهما الرعب حالما أمعنا في النظر بالهياكل العظميَّة التي عثرا عليها للتوِّ، في خرائب زلبيَّة. ليس غريبًا على منقِّبي الآثار رؤية الهياكل العظميَّة. لكنَّ هذا الشعر المتساوي الطول يثبت خرافة أرواح البنات الأربعين في كلٍّ من حلبيَّة وزلبيَّة.

أيَّة حكاياتٍ تحرسها الأرواح هنا؟! هنالك أحدٌ غامضٌ يحرس وجوده السرِّيّ فيضطرّ إلى إلقاء الرعب في المكان! المكان له. هنالك حياةٌ مضت هنا يغار عليها، وحكايةٌ يحرسها!

تشكِّل هاتان القلعتان المتجاورتان والمشرفتان على منحدرٍ صحراويّ، ينتهي بإحدى ضفَّتيْ نهر الفرات في أقصى شمال سوريا، تحفةً معماريَّةً فريدة تجمع الجماليّ مع الوحشيّ بسبب بروز القلعتيْن الشاهقتيْن وسط الصحراء القاحلة وإطلالتهما الرهيبة على فيروز مياه نهر الفرات.

ليس غريبًا أن تقرأ في أحد كتب التاريخ: «تُسمَّى قلعة زلبيَّة أيضًا بقصر البنات. قيل إنَّ أحد الملوك سجن فيها أربعين بنتًا. ويُحكى عن سردابٍ يربط القلعتيْن لم يُكتشف قطّ».

منذ البداية، شعر المنقِّبان أنَّ ثمَّة شيئًا غريبًا، وغير مريح إطلاقًا، لكنَّ ذلك شعور يعتاده كلّ من ينقِّب وينبش في الأماكن المنسيَّة والداثرة.

لعلَّ سبب مفاجأتهما أنَّ الحفريَّات لم تكن تجري في بقايا المدافن البرجيَّة التي تتاخم الأسوار وتجاور ضفَّة النهر، إنَّما كانت تجري في مكانٍ يُفترض أنَّه يتبع للقصر الملكيّ.

لأجل الوصول إلى القلعتيْن، عَبَرَ الشابَّان بحذر وادي

الموت، أو كما غدا يُسمِّيه الأهلون: «وادي الكومانديات»؛ وفيه قُتل ضابطان وسائقهما على يد عصابةٍ من اللصوص. كذلك مرَّا قرب مسلَّةٍ لذكرى وفاة الطيَّار لاكوست دولاتل (28 تمُّوز 1928). وتناولا غداءهما قرب ضريحٍ حجريٍّ لوليٍّ صالح يتبرَّك به الناس.

في الواقع، كان ثمَّة تسابق بين الإنكليز والفرنسيِّين على التنقيب والحفر ونقل الكنوز إلى متاحف البلديْن. ذاع قبل مدَّةٍ صيت تمثالٍ لربَّة الجمال «أفروديت» منتصبة بجمالٍ فريد، وتضع إحدى قدميْها على سلحفاة، ظهر للمنقِّبين في خرائب «دورا أوربوس» أو «الصالحيَّة» كما يُسمِّيها الأهلون. نُقلت الربَّة التاريخيَّة مع سلحفاتها إلى متحف اللوفر.

كان الإنكليز قبل ذلك يسيطرون على لواء دير الزور، وبينما كان الكابتن «مورفي» يحفر خنادق دفاعيَّة في أحد مواقع الصالحيَّة، عثر في مصادفةٍ رهيبة على صورٍ ملوَّنة لأرباب تدمريِّين، فأرسل خبرًا بذلك للميس «جيرترود بيل» التي كانت تعمل على تأسيس متحف بغداد، وطلبت من مستكشفٍ أميركيٍّ هو مدير المعهد الشرقيّ في شيكاغو القدوم لاستكمال جولاتٍ آثاريَّة كان قد قام بها في المنطقة تحت إشراف الإنكليز، لكنَّ الأوامر أُعطيت، وطُلب من الجيش الإنكليزيّ الانسحاب من الصالحيَّة التي خلت للفرنسيِّين.

بعثور الشابَّيْن الفرنسيَّيْن على الهياكل الثلاثة، شعرا أنَّهما يفتحان الصفحات الأخيرة من حكاية مغرقةٍ في القِدَم.

كان الشابَّان يقيمان في الثكنة العسكريَّة «دلابلانش»، حيث

المستشفى العسكريّ والمدرسة والكنيسة الكاثوليكيَّة ودائرة البريد، في بلدة سكَّانها مسيحيُّون في الغالب. وهؤلاء ثرثروا كثيرًا حول أشباح بنات حلبيَّة وزلبيَّة. كانت غاية الآثاريِّين هي التنقيب في جبَّانة المقابر المخرَّبة والتي تُشبه المقابر البرجيَّة التدمريَّة، يتتبَّعان أثر زنُّوبيا التي بنت هاتين القلعتيْن لتشرفا على الطريق التجاريّ النهريّ الذي يصل الشرق بالغرب في تلك النقطة. لكنْ، سيطرت عليهما فكرة الأشباح.

على الرَّغم من أنَّ الأهالي يميلون لتسمية تلك الظهورات الشبحيَّة الأنثويَّة ذات الشعر الطويل والغزير أنَّها حضورات مختلفة لجنِّيَّة المقابر: «نايلة أمّ الشعور المايلة»، لكنَّ غالب الثرثرات تنتصر لقصَّةٍ غريبة يبدو أنَّ ثمَّة حدثًا دوَّنه الناس في ذاكرتهم، وتحوَّل مع الوقت إلى حكاية.

أشباحٌ هائمة لشابَّاتٍ بشعرٍ طويل تؤرّق ليل العابرين. لا يخيِّم أحدٌ هنا. يتجنَّب البدو الرحَّل المكان، كذلك المسافرون ورعاة الأغنام. حتى اللصوص لا يبيتون هنا.

لا أحد يريد مقابلة أشباح البنات الغاضبات. أكَّد الشهود الذين تحدَّثوا عن مقابلة تلك الأشباح الغامضة أنَّها تطوف بخفَّةٍ بين الأبراج الدفاعيَّة المهدَّمة إمَّا بسبب الزلازل أو الحروب أو فيضانات الفرات، لكنَّ الشعر الطويل والغزير كان يبدو واضحًا على الرَّغم من ضبابيَّة الهيئات التي كانت تلمح بين وقتٍ وآخر؛ وأكَّد الأهالي أنَّ تلك الأشباح مؤذية، لأنَّ العجول التي كانت تولد قريبةً من حلبيَّة وزلبيَّة تموت فور ولادتها، كذلك تنفق جِراء الكلاب، وتحمحم الخيل وتصهل باضطرابٍ لدى مرورها في المكان.

حاكمة القلعتيْن

امرأةٌ فاتنة، ساحرة، لعوب، مغوية.. وأهمّ من كلٍّ ذلك أنَّها تربَّت في كنف كاهنةٍ بارعة بفنون السحر، وكلّ من يتلقَّى شيئًا من هذا العالم الغامض يمكن أن يغدو شرِّيرًا في أيَّة لحظة. كانت تخاف على الرَّغم من جمالها أن يزول شبابها، تخشى من منافسة الجميلات. تخاف على مكانتها.

أخطر أشكال الشرّ ذلك الذي يكون سببه الكبرياء، ولكبرياء النساء أنماطٌ لا تخطر على بال، ومن الصعب التكهُّن بما يمكن أن يمليه هذا الإحساس الرهيب من أفكارٍ وتصرُّفات. كانت امرأةً تفشَّى بها الخوف وغدت حقودة، وتخشى من حضور الإناث حولها.

كما كلّ النساء كانت تعلم أنَّ الحبّ فخٌّ ومأزقٌ وورطة يقع فيها الرجل ولا يرى غير محبوبته. استثمرت عمى الحبّ الشهير، وطلبت مهرًا غريبًا من الملك المُغرم الذي تقدَّم لخطبتها.

أرادت أن يكون مهرها حليّ الملكة الأسطوريَّة سميراميس.

قيل إنَّ حليّ المرأة الأسطوريّ تتزيَّن به أسماكها المقدَّسة التي تظهر مرَّةً واحدة في السنة في مياه عين «خسفة». هنا في هذه النقطة من الحكاية لا بدَّ من ذكر حادثةٍ تاريخيَّةٍ ذكرَتها كتب العرب حول أنَّ الخليفة العبَّاسي «المتوكِّل» عندما زار تلك العين الشهيرة بنقائها، رمى مئة دينارٍ من الذهب، ونزل أهل المكان في تلك المياه وأخرجوا المئة دينار كاملةً دون أن تنقص واحدة، وذلك بسبب صفاء مائها الشديد.

يتطلَّب المهر الذي طلبته تلك المرأة الساحرة من الملك قتل أربعين بنتًا ممَّن يقارب طول شعرهنَّ المتر وأربعين سنتم!

كان المهر ذريعةً للتخلُّص من الشابَّات الجميلات اللواتي يحتمل وجودهنَّ في تلك البقعة. وبالفعل، تمَّ أسر أربعين بنتًا عذراء يتميَّزن بجمالٍ شديد، وحُبِسن في أحد أبراج قلعةٍ حلبيَّة. وفي يومٍ حدَّدته الساحرة، تمَّ تقييدهنَّ من معاصمهنَّ وأرجلهنَّ ونُحرن ودُفِنَّ في مكانيْن، أحدهما في قلعة حلبيَّة والآخر في قلعة زلبيَّة على ضفَّتيْن متقابلتيْن فوق مياه الفرات. جريمةٌ بشعة للغاية. مستحيلٌ تبريرها أو القبول بها.

نعلم أنَّ التاريخ يخيطه القتلة وينسجه السياسيُّون ويشرِّعه رجال الدين، ويبقى الحزن على الضحايا من نصيب الشعراء والرواة والفنَّانين، ولهذا وُجِد هؤلاء.

تتحوَّل المرأة إلى وحشٍ حقيقيٍّ عندما تعصف بها الغيرة. لكنَّ حاكمة القلعتيْن: «حلبيَّة وزلبيَّة» تفوَّقت كثيرًا على بنات

جنسها وهي تدبِّر مكيدةً تطيح بكلِّ الرؤوس الجميلة التي يمكن أن تنافس حسنها ذات يوم.

يعلم الآثاريَّان الفرنسيَّان أنَّ الحكايات توقظ خيالنا كما تنعش الأنداء اللطيفة أوراق العشب، لكنَّهما تعرَّضا إلى مسٍّ مباغت. ذراعٌ غامضة دفعتهما للتنقيب في ذلك المكان المفخَّخ بالأرواح الغاضبة. عندما سمعا ثرثرات الأهالي عن أشباح البنات الأربعين، اكتفيا بجرعة السحر الغامضة التي تمنحنا إيَّاها القصص والحكايات، وذهبا إلى عملهما دون أن يخطر في بالهما العثور على تلك الهياكل الرهيبة.

أعادا ردم الهياكل، وصمتا عن الحكاية لولا ثرثرة بعض الصبية الذين كانوا يساعدون أفراد البعثة في التنقيب.

منديل الملوك ونسلُ السمندل

كنت أُنهي سنتي الدراسيَّة الرابعة في جامعة دمشق عندما أرسلت أُمِّي في طلبي.

حان الوقت لتتسلَّمي أسرار السحر. البدايات القويَّة تؤدِّي إلى نتائج مذهلة.

أومأت بأصابعها النحيلة والطويلة صوب القلعتيْن: «نبدأ من هنا».

يومها، لم أعتقد أنِّي بدأت رحلةً لتلقِّي نواميس السَّحَرة سوف تستمرّ لمدَّة اثني عشر عامًا. أي، ما سأرويه هنا هو خلاصة تلك السنوات التي كان لها توقيتٌ سنويٌّ واحدٌ هو الخامس والعشرون من شهر تمُّوز وقت طلوع نجمة الشعرى اليمانيَّة. أوقات السَّحَرة هي مواقيت نجوم. ربطتني خاتون المغوليَّة ببريق النجوم، أتلمَّسُ طريقي عبر أضواء كواكب بعيدة. من تعلَّم لغة الفلك لا يمكنه التحرُّر من البريق وحبر الضوء. كلّ

ما نقوم به ونفعله ونقوله يصبح ذا مغزى ومعنى برعاية لمعان كوكبٍ بعيد.

من الصعب تخيُّل أنَّ مهنتي السحر كأُمِّي، لكنَّه غدا حالةً فنِّيَّةً وروحيَّة أعيشها بكلِّ ذرَّةٍ منِّي.

من ينشأ في كنف ساحرةٍ لن يشبهه إلَّا قلَّة من البشر. لا أزعم أنِّي نادرة، لكنِّي أكيدةٌ من شجاعتي. تربَّيت على الشجاعة. لم تُحذِّرني قطّ من شيء. أخبرتني أنَّ البشر هم أقوى مَنْ يوجد الآن على الأرض، والدماء التي تجري في عروقنا هي طيورٌ لا تهدأ، تُحرِّك رغباتنا وأهواءنا وطموحاتنا، وكذلك مخاوفنا، وهنا نقطة الضعف عندما نتغلَّب على هذه الثغرة التي تحمل اسم «الخوف» سننضمّ للكائنات السرِّيَّة التي حكمت الأرض ذات يوم قبل البشر. لكِ أنْ تُقرِّري إمَّا عصافير تجري في عروقك أو عقبان.. وهكذا، دفعتني للاختبار الأوَّل، وهي تقول:

«أشعر بدمائك أنَّها جوارح تسري في عروقك وتريد أن تُشعل ثورة. تعالي أنجزي ثورتك على نفسك لأطمئنَّ أنَّني ربَّيْتك بشكلٍ سليم ووفق تعاليم كتاب السَّحَرة».

لا أعرف ما إذا قصدت الكتاب المدوَّن على جلود الضباع والمدهون بالسندروس والمخبَّأ في عضد جبلٍ صخريّ، كتاب كتبه أندرياس الحكيم وختمه بالذهب الأحمر، وخبَّأه إلى أنْ عثر عليه الإسكندر المقدونيّ وتعجَّب من أمره فأمر بإحضار أستاذه أرسطو ووضع الكتاب بين يديْه فجعل يتصفَّح ويتعجَّب.. كما تقول الحكايات!

تابعت كلامها وهي تقوم بتقطيع حبَّات البندورة التي تجفِّفها تحت أشعَّة الشمس:

«اسمعي: ستدخلين الخلوة لمدَّة سبعة وعشرين يومًا، وتعلمين أنَّ طعامك سيكون خبز الشعير وتمرًا وزبيبًا وزيتًا. تغتسلين صباحًا ومساءً، وتتوارين عن أشغال الناس».

رأيتُ أُمِّي تدخل خلوتها مرَّاتٍ كثيرة خلال السنة، وغالبًا ما يكون ذلك في نهاية شهر حزيران. تُهيِّئ نفسها لوقت طلوع نجمة الشعرى اليمانيَّة. الخلوة تعني اعتزال الناس والنوم على حصيرةٍ طاهرة، وأن تُبخِّر نفسك وتُطلق بخُّور حصالبان وجاوى ومستكي، وتغتسل مرَّتيْن، وتصوم عن الكلام قدر ما تستطيع. نفَّذتُ طائعة. وخلا بيتنا من الزوَّار بعد أن اعتاد الناس حقيقة أنَّ خاتون المغوليَّة لا تُقدِّم خدماتها في شهر تمُّوز. وكفَّت المرأتان اللتان تساعدانها في شؤون الحوش والبستان الصغير عن القدوم. منعتني من إشعال أيِّ ضوءٍ في الليل. وفي مساء اليوم السابع وقت الغروب وهبوب النسائم العليلة، لمحتُ ثعبانًا يقترب من المصطبة الطينيَّة الصيفيَّة حيث ننام صيفًا. وضعت أُمِّي في يدي شيئًا من المسك بحجم حبَّة حمُّص، وطلبت منِّي أن أرميها للثعبان.

اختفت كرة المسك والثعبان، وأعلنت أُمِّي أنَّ مجيء الثعبان إشارة قبول.

«ستطلع نجمة الشعرى اليمانيَّة. ستذهبين إلى القلعتيْن، وتنطقين بالحروف وتستدعين خدَّامها وأعوانها، وتطلقين بخُّورك. وستحضر بنات الريح الهوائيَّة والسحابيَّة والغماميَّة، وتشبك قواها

مع قدرات الأحرف فيقوى قلبك وينكشف الستار، وحين يلفّك الدخان من كلِّ جانب ستلمحين طيف حاكمة القلعتيْن وستكلِّمينها!»

ستقولون عنِّي مجنونة! لكنْ لم أُعارض أُمِّي في يوم. لماذا؟ لأنِّي لم أَرَ أنَّها امرأة تُخطئ.

لطالما تجوَّلتُ بين القلعتيْن ومشَّطت الضفاف الطينيَّة الزلقة، وجمعتُ لأُمِّي السرطانات الصغيرة، تُجفِّفها وتسحقها وتبيعها كترياقٍ ضدَّ سمّ الحيّات. لكلِّ سؤالٍ جواب، عند خاتون.

ـ كيف تعلمين أنَّ السرطانات تداوي لدغة الأفعى؟!

ـ لأنَّ الأيِّل عندما تلدغه الحيَّة يأكل السرطان. لكلِّ شيءٍ استخدام.

كانت تُبخِّر بقرن الظبي أنحاء منزلنا الطينيّ لطرد الذباب والبرغش.

«لكلِّ مخلوقٍ نقطة ضعفٍ وأخرى للقوَّة، انظري: هذا قرن المعز الجبليّ! أتعلمين أنَّه إذا حاصره الصيَّاد على قمَّة جبلٍ رمى نفسه من أعلى ووقع على قرنه فيسلم».

كانت تطبخ مرارة التيوس الجبليَّة وتصنع منها ترياقًا للسموم، وتشوي أكبادها وتتَّخذ منها ذرورًا تكتحل به العين فيزيل الغشاوة.

لتحمي حوشنا من العقارب، تحرق شحم الإبل كلّ أسبوعٍ مرَّةً، لأنَّ العقارب تكره رائحة شحم الإبل.

مع الخوف، لا يمكن أن تكوني ساحرةً أو امرأةً، أو أيّ أحد.

أُمِّي التي لم تسمح لي قطّ بقذف الحصى في المياه الجارية كما كان يفعل الصبيان والبنات الذين ألعب معهم. تُقدِّس المياه وتقول إنَّها تتكلَّم، وعندما نرميها بالحصى نربكها وتنتبه إلينا ونغدو خصومها. من الخطأ مخاصمة الطبيعة.

كان الموعد وقت طلوع الشعرى اليمانيَّة في شهر تمُّوز. في ذلك اليوم، طلعت الشعرى في برج السنبلة وصاحب السنبلة هو كوكب عطارد، ويحكم من البلدان: الشام وحرَّان والفرات والجزيرة وبلاد فارس وقبرس والعراق وسمرقند وطرابلس. كانت السماء صافيةً ودارة القمر مكتملةً مضيئة، والكواكب صغارًا، ضوؤها عجيب. إذن هذه السنة ستخرج ريحٌ شرقيَّة وتكون المياه كثيرة، وتطيب الثمار ويكثر العسل ويغلو الزيت ولا يحمل الزيتون، ويكون صوت الرعد شديدًا، وكلّ من يبدأ اسمه بـ «ياء أو سين» ينبغي أن يحذر من غدر زمانه.

حملت النسائم رطوبة المياه الجارية على مسافةٍ غير بعيدة عنِّي. تحسَّستُ ذراعي حيث حملت حجابًا فيه كاغد مثلَّثٍ مصبوغٍ بالزعفران، نقشت عليه أُمِّي تثليث الحرف «ألف» يوم الأحد في تاسع درجةٍ من برج الحمل، تعتقد أُمِّي أنَّه تميمةٌ للهيبة والأمن. أعرفُ أنَّ هذا الحرفَ نورانيّ ناريّ، كان أوَّل الاختراع وأوَّل العدد وأوَّل عناصر النار. له القدرة الأزليَّة. في يوم الأحد، أمر مدبِّر الكون أن يكتب ما هو كائن. وضع رأسه على اللوح المحفوظ فسالت منه نقطةٌ من النور، ثم سال منها الألف.

«سيُرشدكِ الضوء الذي ينبع من داخلكِ. لن تحتاجي إلى فانوسٍ أو مصباحٍ كهربائيٍّ أو شمعة، لا أحدٌ إلَّا أنتِ وقواكِ

الخفيَّة التي ستعمل قريبًا، وهنا البداية».

أرشدتني في الواقع الأضواء الفضِّيَّة التي عكستها النجوم، بينما القمر المكتمل فاض بنورٍ، ما احتجتُ معه أيّ فانوس؛ أمَّا الضوء من قلبي فلم أكن على يقينٍ من شيء.

عبرت ما بدا بوَّابةً لم يبقَ منها إلَّا أشلاءٌ معلَّقة على نحوٍ دائريٍّ. انتبهت للأرض المليئة بالحجارة أمامي. كلّ شيءٍ كان عاديًّا بالنسبة لي. أصوات الليل المعتادة: عزف زيزان الصيف، نعيبٌ متقطِّعٌ لعائلة بوم، لمحت أحدها واقفًا فوق أحد الأعمدة. سمعتُ كثيرًا عن أشباح البنات، لكنِّي لم ألمح أيًّا منها.

حان وقت البخُّور. كنتُ جاهزة، فقد صمتُّ ودخلت الخلوة لمدَّة سبع وعشرين يومًا. طعامي خبز شعير وتمر وزبيب وزيت. لا أُضيء ضوءًا، ولا آكل بصلًا ولا ثومًا وكلّ ما يخرج منه دم. وفي كلِّ يوم أمضي إلى الماء الطاهر وأغتسل وأغطس فيه مرَّتيْن وقت الصباح ووقت المساء.

لا تتمّ مصادقة الأسرار إلَّا وأنت مستعينٌ بضوء روحك.

اعتدت العتمة إلى حدِّ أنِّي رحت أرى في الليل وأكشف طريقي بكلِّ يسر.

إذن، الاستعانة بضوء شمعةٍ ليس إلَّا اعتيادًا. يمكننا مع الوقت اكتشاف ضوئنا والاعتماد عليه. لا يمكن ذكر أسماءٍ طاهرة وشريفة إلَّا وأنت طاهر وشريف كذلك. فاحت رائحة البخُّور من صفيحة الفضَّة التي بين يديَّ، وألقيتُ سلامي على سائر الأرواح التي في أربع جهات العالم: المشرق والمغرب والشمال

والجنوب، وبدأت مخاطبتي للأحرف والكلمات: «يا ملح يا مليح يا جوهر فصيح..».

انتبهت إلى أنَّ الكلمات والعبارات التي نطقتُها هي أحرف يرعاها كوكب عطارد ويمسك بكلِّ أسرارها: «الشين والتاء والثاء والخاء». جفلتُ عندما تناهى إلى سمعي هسيسٌ غامضٌ احترت هل هو صدى أفعى تزحف في مكانٍ ما قريبٍ منِّي، أم حفيف قماشة ثوبٍ ما أحاط بي بين دخان البخور وخلاله تراءى لي طيفها.

لن أنسى ما حييت عينيْ تلك المرأة التي انتصبت فوق دكَّةٍ حجريَّة أعلى منِّي بحوالى درجتيْن أو ثلاث، وعلى بُعدٍ لا يتجاوز الخمسة أمتار.

كنت أظنُّ أنَّ أُمِّي تمازحني وهي تُخبرني أنِّي سأُقابل حاكمة القلعتيْن بذاتها إذا ما وصلت في الدقيقة الصحيحة من التوقيت السنويّ الذي تظهر فيه. كان أكثر ما يخيفني في حكايتها المرويَّة أنَّ رأسها مُحاطٌ بالحيَّات على الرَّغم من فتنة وجهها..

أين الحيَّات التي تُحيط برأسك؟ فكَّرت للحظة وأنا أقاوم رغبتي بالفرار أو الذوبان.

تحرَّك الطيف خطوتيْن أو ثلاثًا للوراء أو الأمام! لم أركِّز. كنتُ مأخوذةً بهوْل الصدمة. مفاجأةُ حدثٍ صاعقٍ إذن حقًّا أنَّ خاتون امرأة لا تُخطئ!

هل تسبَّب البخُور ورائحته بهلوسةٍ بصريَّة؟! كان طيفًا متراقصًا لامرأة. امرأة حقيقيَّة، بإمكانها أن تكون بهيَّةً ومسيطرةً

فاخرة من خلال عدم فعلها أيِّ شيء.

لكنَّ ثمَّة شيئًا مخادعًا فيها. واضحٌ أنْ لا أمان لها. هذا ما يعشقه الرجال، فكَّرتُ بيني وبين نفسي. بدا في عينيْها حساسيَّتها المفرطة لكلِّ ما حولها، وهذا أمرٌ يُميِّز كلّ من وُلدوا تحت رقم «اثنيْن» أي لا بدَّ من أنَّ يوم ميلادها توافق إمَّا مع 2 أو 11 أو 20 أو 29. رجَّحت أنَّها من أبناء يوم التاسع والعشرين، لأنَّ ملامحها تحمل جاذبيَّة الرقم تسعة وقوَّته، بينما يمنحها الرقم اثنان توازن تلك الأشياء التي تحمل الكون، يسترخي وجهها المسالم بينما تخفي وجهها الآخر الرهيب. كلّ من وُلدوا تحت رقم «اثنيْن» لديهم هذه الثنائيَّة المقلقة لمن حولهم.

تكلَّمتْ:

«أرسلتك خاتون المغوليَّة؟! حفيدة شعب البجع؟»

انعقد لساني. بينما تابعت وهي تستمتع بملامحي الجامدة:

«حتى الجينات لها رائحة. أشمّ رائحة تلك الأشياء التي تورَّث. أورثتكِ خاتون ما ورثته هي عن أُمِّها. ثمَّة رحلة تعبر الدماء والزمن وتولد دائمًا من جديد. كما دماء الملوك وكما دماء السحرة والشامانات، تلك الدماء التي مسَّها العنصر الغريب الذي يخشاه البشر».

تابعت خطاها بتؤدة وهي تنظر إلى السماء وكأنَّها تترقَّب إشارةً ما.

أخبرتني أُمِّي أنَّ حاكمة القلعتيْن تُلقَّب بحفيدة السمندل. السمندل كائنٌ خرافيٌّ بارد، ينظِّف نفسه بالنار، يدخلها في

مواقيت مُحدَّدةٍ ويخرج منها نظيفًا برَّاقًا.

تُصنع من جلده مناديلُ للملوك، يمسحون بها أيديهم. فإذا اتَّسخت رموها في النار لتخرج نظيفة. ويُدهن بمرارته القضيب فيقوِّي الباه تقويةً عظيمة. النسل الذي يولد من عضو ملكٍ دُهن بدم السمندل يخرج قويًّا فاتحًا وقاهرًا.. وحاكمة القلعتيْن من ذلك النسل.

ملأت الدهشة عقلي وقلبي ولساني وأنا أسمعها تتكلَّم على أشياء لن أنساها:

«نبع الإشاعات هو الخوف. لم يكن رأسي محاطًا قطّ بالحيَّات إلَّا هذه القلنسوة الملكيَّة الفضِّيَّة المزخرفة. إنَّها زينتي. الأفعى حليفة المرأة الأزليَّة. كلّ امرأةٍ ينبغي أن تكون أفعى في لحظةٍ من اللحظات.

هل سمعتِ قطّ عن امرأة اسمها ميدوسا؟! اعتاد الأقدمون نقش وجهها المخيف على بوَّابات المدن والأسواق لطرد الشرّ».

هززت رأسي إيجابًا، وتذكَّرتُ أنّ بعثةً آثاريَّة تركيَّة عثرت على الرأس في شمال سورية في منطقة ماردي، وقالت أُمِّي إنَّ ذلك إيذانٌ بعصرٍ يموت فيه الناس بأرض الشام وتُسفك دماؤهم دون حساب. ما لبثت أن زعقت الحاكمة بي قائلةً: «تكلَّمي. لا أحبُّ النساء الضعيفات. أسمعيني صوتك، يا جبانة».

قلت وقد أكلني الخوف من هذه المرأة الغاشمة: «نعم.. نعم..».

لمعت على ثغرها ابتسامةٌ تختزل سخريةً مشوبةً بالشرِّ،

وقالت بلهجةٍ مؤكِّدة فيها دلعٌ ومرحٌ وتهكُّم:

«جبانة، وتنفِّذين الأوامر، نعم.. نعم!! لو تعلمين كم أكره هذه الكلمة، وأمقت من يردِّدونها دون حساب، لا أعرف ما حاجة اللغة إلى كلمةٍ خنوعة مثل «نعم»، قلتِ إذن نعم! ثمَّة خطأ، ابنة خاتون المغوليَّة، عار عار يا خاتون..!»

تراءى لي كيف رفع الطيف رأسه صوب السماء بينما تجمَّد الدم في عروقي. بدت كما لو أنَّها تقرأ شيئًا خفيًّا بين النجوم، وعادت تكلِّمني لكنْ بنبرةٍ أكثر جدِّيَّة واحترامًا:

«سأحدِّثك عن ميدوسا أيَّتها الجبانة».

لم يكن أمامي سوى أن أتلقَّى شتائم هذا الطيف الغاشم المتسلِّط. سمعت صوتها وهي تتابع كلامها دون أن تكترث بي: «ميدوسا هي واحدةٌ من ثلاث شقيقات ولدن وراء حافَّة العالم. مكانٌ لا تصله شمسٌ ولا قمر. مكانٌ غامضٌ! وهل يولد الفاتنون إلَّا في عالم الغموض؟

وجهها الجميل محاطٌ بالأفاعي، ونظرتها تجمِّد كلّ من يراها! هل فهمتِ اللعبة؟ تجمَّدت كلّ ذكورة الأرض خشية من امرأةٍ حرَّةٍ مستقلَّة لا تكترث إلَّا بشغفها. ضاجعت ميدوسا الجميلة ربّ البحار المغويّ نبتون. قيل إنَّ ذلك حدث في معبد أمّ المعارك ربَّة الحرب منيرفا. غضبت تلك المرأة المدرَّعة القاسية التي وُلدت من رأس أبيها. إنَّ منيرفا عقلٌ خالص لا عواطف لها. هل تتخيَّلين مزاج امرأةٍ وُلدت من رأس رجل؟ تآمر ثلاثة آلهةٍ وملك لأجل قتل ميدوسا. وُلد حصانٌ مجنَّحٌ من دمائها

السوداء. وجهها الجميل يغوي الرجال، لكنَّ نظرتها القويَّة تجمِّدهم وتحوِّلهم إلى حجر.

الرجل الذي استطاع قتل ميدوسا كان ملكًا تآمر معه ثلاثة آلهة: تسلَّح بخوذةٍ استعارها من ملك الظلام والموت هادس، وأعاره هرمس المحتال حذاءه المجنَّح، بينما أعارته منيرڤا الحربيَّة الداهية درعها الذي احتاجه للنظر خلاله ومراقبة حركات ميدوسا الحرَّة، وفي الوقت نفسه يتجنَّب نظرات عينيْها التي تُحيل الرجال إلى حجر. رهيبة تلك الميدوسا! امرأةٌ تُجمِّد نظراتها كلّ رجلٍ يقع بصرها عليه!

ليست امرأةٌ تلك التي لا تلسع بنظراتها. إن لم تمتلك المرأة عينًا تلدغ عن بعد ستسحق، وتخيب، وتُرمى كورقة خريف».

حرَّكت حاكمة القلعتيْن رأسها باستدارةٍ كاملة نحوي، وتضخَّم قلبي، وركضت الدماء في عروقي وتجمَّدت أوصالي، وهي تتكلَّم على ميدوسا:

«كانت ميدوسا جميلةً وينعكس القمر على وجهها، لكنَّ قوَّتها الرهيبة التي اجتمعت مع حسنها أثارت نقمة الآلهة أنفسهم. تآمروا عليها مع ملكٍ آدميّ، واستطاع قتلها وهي نائمة. روحها التي انفصلت عن جسدها تحوَّلت إلى حصانٍ أسطوريٍّ يجوب السماء، لعلَّكِ تفهمين الآن كيف يكون الخلود! بينما رأسها أخذته أثينا وزيَّنت درعها فيه لتُخيف أعداءها، وتُلقي الرعب في قلوب من يلاقيها. ومنذ ذلك اليوم، اعتاد الناس نقش رأسها أو نحته ووضعه في مداخل الأسواق والحمَّامات وفي تزيين خُوَذ الملوك ودروعهم.

يخشى البشر العيون. نأخذ العالم بعينيْن مفتوحتيْن. أفهمت؟!»

لم يكن عندي جوابٌ غير الصمت. سمَّرتني الدهشة في مكاني، أمَّا الخوف فقد لبسني تمامًا. كيف لي أن أكون ندًّا لامرأةٍ تسبَّبت بقتل أربعين بنتًا؟!

يا ويلي! وكأنَّها قرأت أفكاري، رمت بصرها عليَّ فجأةً بعد أن عادت لمراقبة السماء، وقالت:

«لا أعرف لما أرسلتك خاتون إليَّ! لكن اسمعي: انسي أنَّ العالم يمكن أن يكون منظَّمًا وعادلًا ومنطقيًّا. تُحرِّك العالم قوى عمياء ترسم خطواتها الفوضى، وإلَّا كيف نفسِّر خوض حروبٍ دمويَّةٍ لا داعي لها، وإلحاق الضرر والدمار بأنفسنا وببعضنا بعضًا. علينا أن نعتاد على حقيقة أنَّ البشر مفطورون على السعي لامتلاك أشياءَ لا معنى لها وليست لهم. العالم مليءٌ بالأغبياء وناكري المعروف والمتباهين بالإحسان، فلِمَ لا يكون للنرجسيِّين الشرسين أمثالي مكان؟!»

صمتت قليلًا وكأنَّها تجمع المزيد من الاعتداد وهي تُكمل كلامها: «أنا لست إلَّا انعكاسًا حيًّا لتفكير كلّ امرأة، ما من أنثى تقبل بواحدةٍ أفضل منها بشيء. أنا اللحظة الحيَّة لخوف كلّ امرأةٍ من أخرى. الغيرة؟ نعم. من منَّا لا تغار من أخرى قد تحظى بحبِّ رجلٍ تتمنَّاه كلّ النساء؟!

هل سبق وأن أُغرمتِ أيَّتها الجبانة؟!»

تُصرُّ على نعتي بمفردةٍ أكرهها بحقّ. جمعت نفسي وكلماتي،

وقلت أخيرًا بشجاعةٍ وإصرارٍ على مجابهة طغيانها:

«كلّ أشكال البغض هي محاولات هربٍ فاشلة من الخوف».

لم يتغيَّر شيءٌ من البريق المنبعث من عينيْها. كانت تترقَّب كلماتي وكأنَّها تتوقَّع أنِّي سأنطق أخيرًا.. تابعتُ دون خوف:

«معظم البشر يعتقدون أنَّ لديهم آراءً عظيمةً ويريدون فرضها على العالم. لهذا تحدث الحروب. يؤمنون أنَّ اختلافاتهم تجعلهم أعلى أو أدنى من بعضهم بعضًا. يخافون من ألوانهم المختلفة.. والنساء يخشين بعضهنَّ بعضًا أكثر ممَّا يخشين أعتى الرجال».

صمتت وقد شعرتُ أنِّي وصلت إلى نقطةٍ لا يمكنني تجاوزها معها. إنَّها الحقيقة، أبسط الناس لا يريدون سماع الحقيقة فما بالكم بالملوك؟ كيف لي أن أُخبرها بحقيقة أنَّ ما فعلته جريمةٌ أدهشت التاريخ، جريمةٌ دافعها الغيرة والحقد على كلِّ ما قد يتفوَّق عليها؟ الصمت أجدى. لا يمكنني مجادلة الماضي. الجريمة وقعت ولا فائدة من شرح ما حدث أو التأسُّف عليه، لكنِّي كنتُ قد اتَّخذت قراري أن لا أجاملها.

تبادلنا نظراتٍ كاوية، ثمَّة عداوة رفرفت في المكان. إنَّه التحدِّي الذي تفهمه النساء. مكرنا وكيدنا الذي نلوذ به في لحظةٍ ما. قالت بنبرةٍ تشي بشيءٍ من التبرير، لكنْ دون الأسف:

«كلّ شيءٍ اثنان اثنان، رجلٌ وامرأة. هذه حقيقةٌ سليمة تمامًا. تلعب في الحياة قوَّتان عدوَّتان: الحبّ والكره.. كما يرسم لنا أيَّامَنا ومواقيتَنا كوكبان هما: الشمس والقمر».

صمتت فجأةً وقد نظرت صوب السماء مجدَّدًا، وفاض ضوء البدر المكتمل، ولمع ظلّ لون ثوبها المسحوب وراءها كذيل طاووسٍ يزحف وراء أثرها الذي سرعان ما راح يتلاشى. وسمعتها تقول بصوتٍ ساخر: «كلّ الملوك أحرار، أليست الحرِّيَّة هي في فعل ما يشتهيه المرء.. فعلت كلّ ما اشتهيت، لكنْ دون أصدقاء. فالمنهزم وحده يتعرَّف أصدقاءه الحقيقيِّين، بينما المنتصر يحيط به الجميع؛ قسوت لأكون المنتصرة دائمًا.. عشت في قلب الخطر ولم أتذمَّر قطّ، فالشكوى من سجايا العبيد». اختفى طيفها تمامًا.. واستيقظتُ من دهشتي وحلم اليقظة الغريب الذي عشته بسبب تأثير عقاقير خاتون.

أهمّ ما يمتاز به السحر هو أنَّه يُظهر لك الخيط الخفيّ بينك وبين العالم اللامرئيّ، يكشِّف حساسيَّتك تجاه تلك القوى التي تعمل بصمتٍ حولنا.

لم يتغيَّر شيء. الصمت ذاته، السكون، الاطمئنان المستسلم الذي تتميَّز به الأماكن المنسيَّة والداثرة. علمت أنَّني يجب أن أعود أدراجي. ملأت صدري بأنفاس نهر الفرات العظيم الذي يحاذي القلعتيْن.

أرادت أنْ تُخبرني أُمِّي بطريقتها كيف أنَّنا يجب أن نرتدي وجه الميدوسا، أحيانًا. لا بدَّ من وجهٍ شرِّير نُظهره في الوقت الملائم.

ليست هناك طريقةٌ خاطئة للحياة. كلّ ما في الأمر أنَّه مجرَّد حكمٍ نُطلقه، نخلقه، ونرميه في وجه العالم. تملك الحقّ أن تعيشَ كما تهوى وتحبّ.

المهمّ أنْ يحلّ السلام في رأسك.

لم يتغيَّر شيء. حلبيَّة وزلبيَّة القلعتان التوأم الحزينتان، تشمخان بأنَفَةِ حاكمتهما المرعبة التي لم أحبّها. لا عدالة. لهذا تنتظر البنات الانتقام، لا يخبرهنَّ أحدٌ أنَّ العدالة خرافةٌ أذرعها عريضة، تأوي القتلة، وتنصت لقرع طبول الأقوياء والمنتصرين.

فيما كنت أدوس الأعشاب النديَّة، وتتقافز الجنادب أمام خطواتي، فكَّرت أنَّ العرَّاف يُبصر ما يدَّعيه البشر، يرى أوهامهم وما يعتقدون بأنَّهم يكونون. العِرافة هي فنُّ قراءة ما وراء القصص. لطالما كانت أُمِّي بارعةً بقراءة وجوه أولئك المخمورين بالأوهام، بينما هنالك أحدٌ هو الصاحي في أعلى جبلٍ اسمه «الحقيقة».

كلّ العصابيِّين والمتطرِّفين هم أبناء الوهم، فالحقيقة من رخام، لا تحتاج إلى أن تثبت نفسها وصلابتها. العرَّاف هو من يخترق سور الأكاذيب التي يزرعها البشر حول أنفسهم. تضلِّلهم اعتقاداتهم، مرآةٌ خادعة تُريهم ما يعتقدونه هم عن أنفسهم.

أخبرتُ أُمِّي ما جرى معي، وكانت قد انتهت للتوِّ من إراقة حليب الفرس على التراب، تحت ضوء القمر. تقليدٌ غريب، انتظرتُ طويلًا حتى فهمت سرَّه.

غفوتُ ونمت كما لو أنَّني عدت من معركةٍ مضنية. استيقظت ضحوة النهار التالي. تنشَّقتُ رائحة الصباح، بينما دجاجةٌ وصيصانها تعبر أمام غرفتي دون اكتراث، وتنبعث رائحة الحليب من مطبخ أُمِّي الطينيّ.

لم تزل السماء الزرقاء تكتم أسرار قلعتيْ حلبيَّة وزلبيَّة المتجاورتيْن كأختيْن شقيقتيْن، كتوأميْن صخريَّتيْن غامضتيْن. تشمخان على ضفَّتَي الفرات، متقابلتيْن برشاقة غزالتيْن من حجر، وسط بحر الرمال الحارق وضفاف الفرات المتألِّمة، وغضب البنات المنحورات، غضبٌ لا حدود له، تلفحه الشمس، بينما ينساب الفرات هادئًا صامتًا وسط الأراضي الشاسعة المطوَّقة بالسراب الذي يعبر خطوط الآفاق كأرتال جيشٍ أزليَّة.

2

أشباح آبار إسريَّة وقصَّة الملكة العمياء في بادية حماة

حفر تلك الآبار ملك الظلام. هذا ما يقوله الأهلون. ليست آبار إسريَّة الخمس إلَّا طرقًا سرِّيَّة إلى جوف الأرض، حيث تجري أنهار الظلام في خمسة مستوياتٍ وطبقاتٍ من جوف الأرض الجهنَّميّ.

تلك الهمهمات المريبة والأصوات الغريبة التي تُسمع بعد منتصف الليل من فوَّهات آبار إسريَّة هي أصوات المعذَّبين، كما يزعم الأهلون.

إلى يمين الطريق الصحراويَّة الذاهبة إلى رصافة هشام حيث تترامى البوادي منبسطة كانبساط السماء الزرقاء فوقها، تُلمح أطلال مدينةٍ رومانيَّةٍ قديمة اسمها «إسريَّة»: أفاريز مثلَّثة وقناطر معقودة وسواكف نائمة وأعمدة منبطحة على الأرض. خراب من الحجر المنقوش بأزاميل فنَّانين طوَّعوا الصخر لنقش الأعناب

والرمال والجمال المحمَّلة بالبضائع والخيول المندفعة والنمور والفهود والعقبان، وطيورٍ خرافيَّة أبدانها من ريشٍ ورؤوسها رؤوس أسودٍ وأرجلها مخالب صقور، ووجوه ملوك وأمراء، وأجسادٍ عارية لنساءٍ كنَّ ربَّات وإلٰهات عُبدن وقُدِّمت لهنَّ القرابين ولأجلهنَّ سُفكت الدماء.

بقايا القصر، أو ما يُسمِّيه الناس قصرًا، هي في الواقع بقايا معبد «أبولون» ربّ الضوء، عازف القيثارة، وإلٰه الشباب والموسيقى، والعِرافة، ورمز الحضارة بكلِّ تجلِّياتها.

تتحرَّك الريح الصحراويَّة وسط ذلك النور المشعّ والحارق وتفتح معبرًا للحكايات الغريبة، وتبزغ أسماءٌ عجيبة تُروى قصصها وسط دخان المباخر.

تدخل النساء أبدان القصص، تُحرِّكها وتُغيِّرها وتُضفي عليها المزيد من الدهشة. إنَّها امرأةٌ أنثى، ربَّةٌ جنِّيَّةٌ عفريتة.. لا أحد يعلم! لكنْ لفت انتباهي حقيقة أنَّ اسمها ليس مجهولًا في التاريخ الميثولوجيّ للمنطقة: «عميميت». أعتقد أنَّه تصحيف لاسم «عماميت»، أحد أسماء الروها في الميثولوجيا المندائيَّة. يظهر اسمها هنا في لحظةٍ تاريخيَّة أو خرافيَّة مخالفة وغريبة. وتُلقَّب عمومًا بالملكة العمياء.

تتخلَّل أرض مدينة إسريَّة فوَّهاتٌ عظيمة، على جوانبها أدراجٌ مرصوفة على نحوٍ حلزونيٍّ تؤدِّي إلى أعماقٍ معتمة لا قرار لها. اعتاد البدو انتشال الماء منها لإطفاء ظمأ مواشيهم من غنم وإبل. وحدثت في المكان مواجهاتٌ دمويَّة بين القبائل وحالاًت ثأرٍ محزنة.

تتخلَّل المكان بقايا أرصفةٍ رومانيَّة وكِسَرٌ فخَّاريَّةٌ حمراء. تبدو إسريَّة لزائر اليوم كعاصمةٍ للصمت الأزليّ. مدينةٌ منذورةٌ للنور الجافّ الذي يحكم المكان. لم يكن بوسع الرومان العثور على مكانٍ فيه كلّ هذا النور الهائل المتوحِّش، يليق بنور إلٰههم الوسيم أبولون.

عُثر في المكان على تمثالٍ من البرونز للربّ الوسيم المضيء، إلٰه الغيب أبولون. يُعدّ المكان رسميًّا مُلْكا للإلٰه الرومانيّ، ولكنْ خرافيًّا تعشّش فيه «عميميت».

يدفعنا الضوء هناك إلى التلفُّت حولنا والتمعُّن في الفضاء الأزرق العميق، أين اختفت تلك الآلهة المقدَّسة ذوات الأجنحة والوجوه الفائضة بالحسن والوسامة؟

يكفي إلقاء نظرةٍ عبر تلك الفوَّهات المعتمة المنفتحة على بطن الأرض لتجرفنا دوَّامات التاريخ، وتسحبنا إلى يومٍ كان هنالك لغةٌ ووعيٌ مختلفان.

يخشى الجميع «عميميت». كيف سيطرت على المكان؟ بينما الحفريَّات الأثريَّة تأخذ صفّ ربّ الضوء والحضارة: أبولون!

إلى الشرق قليلًا من إسريَّة، تعلو تلَّتان متجاورتان ومتساويتا الحجم على نحوٍ غريبٍ وجميل يُسمِّيهما البدو بـ «التناهج»، ويقولون عنهما أنَّهما ثديا عميميت!

تشعُّ الشمس بجنون وبلا هوادة، ويرتعش السراب محتلًّا المكان، ويغدو ثديا عميميت الحاكمة المتنفِّذة ببطن الأرض خرافتيْن لا بدَّ منهما. وإلَّا كيف نُفسِّر غرائب المكان وعجائبه؟

تنزف الأرض قصصها دون توقُّف، وتتنصَّت امرأة الظلام

على كلِّ ما يحدث تحت الضوء. لا أسرار تخفى على سكَّان العتمة.

أينما تحضر الأنوثة تحضر الرغبات. النساء هنَّ رغبات تمشي على قدميْن في كلّ أحوالهنَّ، ولا شيء يتحرَّك دون رغبة.

كانت عميميت شابَّةً جميلة تعيش تحت الضوء عندما أُغرم بها ملك الموت وحاكم النهايات وربّ العوالم المجهولة، وأرادها لنفسه.

حذَّرتها أُمُّها من «النظرة»! تقول: العيون هي كلّ شيء، والنظرات هي ورطات قدريَّة مع المجهول. وكان ذلك المجهول ملكًا.

العالمُ كبيرٌ كبيرٌ، لكنْ يمكنه أن يكون أصغر من أصابع ملك.

أخبرتها أُمُّها أن تشيح بعينيْها عن رجلٍ مجهول قد تقابله في مكانٍ ما. تعلم الأُمّ أنَّ للمجهول فتنةً عند الشباب.

رضخت الفتاة الشابَّة للغريب الفاتن، حتى تلك العتمة التي لاحت في عينيْه أسرتها! بالكاد منحته نظرة، وتورَّطت. ضرب القدر أجنحته وحلَّق حول عميميت التي أُغرم بها ملكٌ غامض لا تعلم عنه شيئًا، تذكَّرت تحذير أُمّها وحاولت أن تفرّ، لكنَّ ذراعيْه الرهيبتيْن طوَّقتا خصرها وقبض عليها المجهول القاسي. وبفضل القوَّة التي تمنحنا إيَّاها الرغبات استطاع انتزاعها من عالم الضوء، وسحبها إلى بطن الأرض بعد أن ضرب عينيْها بالعمى حتى لا تفتقد الضوء، وأخذها إليه ليروي ظمأه من جسدها. استبقاها في عالمه المظلم، وظلَّت تحنّ للعالم الذي وُلدت فيه، وتلك الثغور

وفوَّهات الآبار المفتوحة والمحروسة بالثعابين السامَّة ليست إلَّا آذانًا أرضيَّة تنقل أخبار عالم الضوء إلى مملكة الظلام.

ذلك الذكر السفليّ، الذي يحكم بطن الأرض، أمسكها وطرحها في مضجعه وقام بإرواء اشتهائه لها دون أن تتفوَّه أبدًا إلَّا عبارةً واحدة: «لا.. أرجوك». وعندما تقول امرأةٌ «لا.. أرجوك» إذن هي تريده بكلِّ جوارحها. عاود الكرَّة لثلاث مرَّات، وبذلك غدت له ومِلكه، وأذعنت.

لكُم أن تحزروا أنَّ هذا المكان الرهيب هو رحلتي الثانية التي فرضتها عليَّ خاتون المغوليَّة في السنة الثانية وفي شهر تمُّوز وقت طلوع الشعرى اليمانيَّة.

كان التوقيت المفروض هو منتصف ليل. وهنالك أربعون درجةً عليَّ أن أهبطها في معبد ربّ الضوء الإغريقيّ: أبولون.

المكان هو بقايا قصرٍ رومانيٍّ متهدِّم، والدرجات الأربعون تهبط إلى بابٍ مسدود. وغالبًا ما غدت منطقة آبار إسريَّة مكتظَّة بالسوَّاح. كانت فيما مضى مقصدًا للبدو الرحَّل. لكنْ تلاشت حياة البداوة، ولم تعد إسريَّة إلَّا ملعبًا للخرافات ومخاوف البشر، وعميميت هي بطلة الحكاية.

لستُ من الناس الذين يشتكون من القيظ. ربَّتني شمس الفرات.

حامت في السماء عقبانٌ وبواشقُ وحمائم. وتناهى إلى سمعي صوت قبَّرة الصحراء بوضوح. كانت المعزوفة الأثيرة لأذنيَّ، وتفاءلتُ برحلتي إلى لقاء عميميت.

انضممت لمجموعةٍ سياحيَّة أغلبها أجانب خيَّمت وسط الآثار

الرومانيَّة التي تجذب البشر من أقاصي العالم. غادرت خيمتي حوالى الساعة العاشرة. ثمَّة مخفرٌ عسكريٌّ قريب. وتعبر السيَّارات دون انقطاعٍ طوال النهار، وتخفّ كثيرًا خلال الليل المركبات العابرة التي تقصد الشمال الشرقيّ من سورية قادمةً من بادية مدينة حمص.

للأمكنة الداثرة هيبتها. تُلقي رهبةً غامضة في القلوب. قمت في النهار بجولةٍ، وتجرَّأتُ وهبطتُ الدرج وبلغتُ المكان المسدود، كان جدارًا من الطين والحجارة. بدا واضحًا أنَّ البعثة الآثاريَّة الألمانيَّة التي نقَّبت في المكان قبل عدَّة سنوات، قد بذلت جهدها في توضيح زخارف المكان. كان واضحًا أنَّ من زخرف هذا المكان كان مولعًا بنبتة الخرشوف! أعلم من أُمِّي أنَّ هذه النبتة تقوِّي الرغبة عند النساء.

يتكوَّن قصر إسريَّة من ثلاثة طوابق، ويوجد برجان للحراسة. أحد البرجيْن كان وجهتي، إنَّه البرج الشماليّ الذي يحوي درجًا لولبيًّا من أربعين درجة يقود للأسفل.

لعلَّ فكرة «القصور» المشيَّدة في الصحراء من أكثر الإبداعات التي برع فيها البشر الذين يخشون الطبيعة. خافوا من البرق والرعد والأنواء فاستعطفوها ببناء المعابد وتملَّقوها.. لكنَّ القصور والحصون ليست كذلك، إنَّها طموح مهندسٍ أراد منافسة الطبيعة وتحدِّيها، أمّا القلعة فهي علامةٌ أكيدةٌ على انعدام الثقة بين البشر والقدر.

تلمَّستُ بأصابعي زخارف ورق الخرشوف. وتأمَّلتُ تيجانًا كورنثيَّة مزخرفة، وتوقَّف بصري عند تمثاليْن منحوتيْن لسيِّدتيْن شبه

عاريتيْن. إنَّهما ربَّتان. إحداهما للحبِّ، والأخرى ترعى السنابل ـ وهذه هي أمّ البنت المخطوفة.

عند آخر درجة أسفل السلّم وقفتُ حائرة. تطلَّعت إلى الساعة، كانت الثانية عشرة ظهرًا. الصمت مطبقٌ وهائل، ويحكم كلّ شيءٍ هنا. لطالما كان الصمت وطنًا لي. عدت أدراجي، وتشاغلت عن المجموعة التي أرافقها بتصفُّح كتاب. كان لا بدَّ أن أحافظ على مبادئ الخلوة، وأن لا أخلّ بطقوس الطعام. شربت الماء، وأكلت الزبيب وخبز الشعير مع زيت الزيتون ونمت.

لا تُخطئ ساعتي الباطنيَّة. استيقظتُ قُبَيْل الوقت المُحدَّد بساعتيْن. اغتسلت بما تيسَّر لي من مياهٍ جلبتها معي مقروءًا عليها تمائم أُمِّي. ارتديت رداءً من القطن الأبيض، وتسلَّلت صوب المكان المُحدَّد الذي تعمَّدت أن تكون خيمتي قريبةً منه قدر الإمكان.

كنت دائمًا أتخيَّل أنَّ جوف الأرض دماغ عملاق. تغويني فكرة السراديب والآبار والأنفاق. كلّها مخطَّطات للهروب والاختباء.. لكلِّ المخلوقات أسلوبها وطريقتها في الانسجام مع الطبيعة، وما أكثر كائناتها التي لا تعثر على التناغم في حياتها إلَّا في الاختباء والانزواء! وباطن الأرض وجد لأجل ذلك.

لففت ذراعيَّ حول كتفيَّ، وكان حجاب حرف «الزاي» المكتوب إحدى عشرة مرَّة على مثلَّثٍ من الفضَّة يوم الاثنين في يومٍ يتَّصل فيه القمر بالمشتري. يقول كتاب السَّحَرَة إنَّ الإسكندر

الأكبر عندما كان يحاصر مدينة، كان يكتب حرف الزاي تسعًا وتسعين مرَّةً في يومٍ يتحكَّم فيه كوكب زحل، على صفيحةٍ من النحاس، ويرسله مع جنديٍّ يتسلَّل إلى أسوار المدينة ويدفنه في أساساتها، فتستسلم له دون قتال.

تطلَّعتُ إلى السماء فوقي، وقد طلعت الشعرى اليمانيَّة في برج الثور وقرون القمر مُحدَّدةً مضيئةً ومنيرة، ورأيت الكواكب صافيةً وضوءها إلى السواد مستطيل. إذن سيتحكَّم برج الثور في هذه السنة صاحبه كوكب الزهرة ويحكم من البلاد بغداد والسودان وهمدان وأردبيل ونابلس والقرم ومنبج. إذا طلعت الشعرى والقمر في الثور فإنَّه يُخرج ريحًا يُقال لها «أناطليوس» وتدوم إلى أن يغيب القمر، ثم تخرج ريحٌ شماليَّة في طرفَي السنة، وتدوم الريح الشماليَّة إلى تمام الهلال وتعود إلى الغربيّ. يَحسُن نبات الأرض والزرع ويفسد ثمار النخل ويسقط ثمر الشجر وينصلح العسل ويقلُّ الطير وينتقل عظماء الناس من أوطانهم. ستنشب حربٌ ويُظفر بملكٍ بآخر، وتُسفك دماءٌ كثيرة. سيكون الشتاء باردًا، وسيخرب الشعير، ويكثر الصداع والحمَّى والنزلات في الرأس. تخرج ريحٌ جنوبيَّة شديدة في الجوِّ، وتموت النساء أكثر من الرجال. وكلّ من يبدأ اسمه بـ الكاف أو السين أو الشين يُخشى عليه من مكروه!

نفخت على البخُّور في الصفيحة التي بين يديَّ، وبدأت باستدعاء خدَّام الكلمات وأعوان الأحرف: «يا ملح يا مليح يا جوهر فصيح..». كانت العبارات والكلمات محشوَّةً بأحرف القمر الباردة والرطبة: «ذال وضاد وظاء وغيْن». أحاطني دخان

البخُّور ورائحته المسكيَّة من كلِّ جانب.

مرَّت دقيقتان أو أكثر قبل أن تتراءى كلّ تلك الأشياء المهيبة.

على الرَّغم من الظلام، كان يمكنني أن أرى ميزانًا يحمل في كفَّته اليمنى ريشة، وعلى الكفَّة اليسرى شيءٌ صغيرٌ بحجم قبضة اليد ملفوفٌ بقماشةٍ بيضاء.

تقدَّمت خطوتيْن إلى الأمام ببطء. تمعَّنت في الريشة البيضاء المشوبة بالرماديّ وذلك الشيء الملفوف. نقَّلتُ بصري بين الكفَّتيْن وسمعت صوتها.

«ريشةٌ وقلبٌ يحتلَّان كفَّتَي الميزان.. هكذا توزن الأفعال والنيَّات والمشاعر في عالمنا».

بالكاد، لمحتُ هيئتها تقف في عمق المكان المظلم. لم أتبيَّن ملامحها تمامًا.

سَرَتْ في جسدي قشعريرةُ برودة.. أحطتُ كتفيَّ بذراعيَّ، بينما سمعت الصوت ينطق مرَّةً أخرى:

«ألم تُخبرك خاتون المغوليَّة أنَّ كلّ الكائنات تولد من التناغم السرِّي والانسجام الدفين بين عالميْن، أحدهما ساخن وآخر بارد؟!

الرجال مثلًا، والسماء والجبال والأعداد الزوجيَّة هم أبناء البرد. بينما السخونة أمٌّ كبرى للنور والمرأة والحرارة والأعداد المفردة والوديان؟!»

بدت لي من صوتها شابَّةً بريئة، فيها كثيرٌ من الطفولة. إنَّها

من أولئك الذين يعيشون الحياة كما لو أنَّهم يتعلَّمون لعبة.

قلتُ دون خوف: «لو أنَّ أُمِّي أخبرتني كلّ شيءٍ لما جئت إلى هنا».

«دعيني أُخمِّن.. تخاف الأُمَّهات على بناتهنَّ من الحبّ».

تلقَّيتُ من خلال صوتها عذوبةً تلقائيَّة وسجيَّةً مطمئنة. تبيَّنت ملامح وجهها الجميل، بينما تابعت كلامها:

«لا يريد البشر التصديق أنَّ حياتهم تخضع للمصادفة العمياء والصمَّاء، لا قلب لها ولا تفكير ولا عقل، إنَّما حظٌّ وحسب. مصادفة سعيدة أو العكس».

سألتُها وقد علمتُ أنَّها لم تروغني أو تضِع الوقت:

«هل أنتِ سعيدةٌ في الحبّ؟»

بدا كأنَّها تتَّجه صوبي، غدت قريبةً أكثر من الميزان. توضَّح لي وجهٌ لا يشي بأيِّ جهدٍ مبذولٍ لأجل غواية أحد. تضيع الحدود بين الخير والشرّ في ملامحها. لها سيماء طفلةٍ مدلَّلة، وروحٌ بنّاتيَّة مع مسحةٍ من التهوُّر، وشغبٌ طفوليٌّ تكبحه حقيقة أنَّها عمياء. تابعت كلامها:

«من دون الأخطاء، لن تكون قوَّة الحياة موازيةً لقوَّة الموت فينا. من قال إنَّنا يجب أن نغادر الحياة ونحن أبرياء.. دون أخطاء أو ذنوب! نكون سعيدين ليس بسبب المدَّة التي نطيل فيها بقاءنا، إنَّما بثراء حضورنا، أن نجيد العيش..».

صمتت هي وكذلك أنا. نظرت عميميت إلى الكفَّة التي تحمل القلب وأحنت عنقها، ونفخت قريبًا من القلب. اهتزَّت

الكفَّة، واستغرقت وقتًا لتعود وتسكن. فكَّرتُ هل هي حقًّا عمياء؟!

«سأقول لكِ شيئًا: من لم يستعبدهم الحبّ ذات يومٍ لن يكونوا أحرارًا قطّ».

نطقت بتلك العبارة وتلاشت تمامًا.. اختفت عميميت بخفَّةٍ لا مثيل لها. انتهى الحلم، لم يكن ثمَّة شيءٌ واقعيٌّ أو حقيقيّ! لا، لا تصدِّقوا! إنَّها كلمات أُمِّي السحريَّة التي تدفعني لتخيُّل كلّ هذه الدهشات.

وجدت نفسي أمام الحائط الطينيّ. صعدت الدرج الحلزونيّ، فوقي السماء المتوهِّجة بمجرَّة درب التبَّانة المفتوحة على العقل الكونيّ العظيم. لا بدَّ أنَّها كلمات أُمِّي السحريَّة. معجزة الأحرف التي تتحوَّل إلى جوقة عزفٍ إذا ما أجدنا استخدامها.

لا بدَّ أنَّ الزمن كان مائعًا لا شكل له، هلاميًّا لا معنى له، إلى أن وُلدت الحروف والكلمات.

قطعت مسافة مئتي مترٍ صوب الخيمة، ونمت وقد غمرتني سعادةٌ لا توصف.

عند البدو عادة ـ حتى هذا اليوم ـ أنَّهم يصمتون قرب الآبار والسواقي ومصادر المياه. لا يثقون قطّ بالمياه الجارية، لأنَّها قد تبوح بأسرارها. والشابَّات الحسناوات يتنقَّبنَ عندما يملأنَ دلاءهنَّ خوفًا من نظرة «المجهول».

3

مغارة الوثن الجدْي ذي الوجهيْن
في غابات جبال البلعاس(*)

بعض الكواكب مُذكَّرٌ وبعضها الآخر مؤنَّث، بينها كواكب تجلب السعد والحظّ الحسن، وكواكب أخرى لئيمة لا أفضال لها وتجلب النحس. أوهام البشر أم هنالك سرٌّ لا نُدركه!

لكلٍّ كوكب أرقامه وأشكاله. علَّمتني خاتون القراءة على شرف الكواكب، وتأويل انقضاض الشهب على الأرض في مواقيتَ مُحدَّدة.

(*) تلاشت غابات البلعاس وتحوَّلت مع بداية التسعينيَّات إلى محميَّةٍ طبيعيَّة، فيها بعض أقدم أشجار البطم المعمِّرة. اندثرت معظم ملامح جبال وهضاب البلعاس الأخَّاذة مع وجود عصابات منظَّمة داعش الإرهابيَّة، والتي وجد أفرادها في مغائرها وكهوفها الكثيرة ملاذًا آمنًا من الغارات الجوِّيَّة.

توهَّجت في أوقيانوس السماء درب التبَّانة التي يُسمِّيها الفلكيُّون بـ أُمِّ النجوم، تشبه سحابةً من بريق وأضواءً تدور كالرحى وتُنير السماء. ولمع نجم الجدْي في جهة الشمال مستقرًّا في مكانه الأبديّ.

نجوم الليل هي شموس الأرواح. أرواحنا شموسٌ حسَّاسة للحقائق المستورة.

فتنتني دائمًا سحريَّة الحَجْب بين الصانع والصنعة، هنالك سرٌّ ضبابيٌّ بين الفنَّان ولوحته. وهنا بالضبط يكمن الجلال والجمال. أُحدِّثكم عن فتنة فكرة الأستار السبعة التي يقول بها السَّحَرة. جميعكم ينظر إلى السماء ليلًا. هل فكَّرتم بأستارها السبعة؟ ستر المُلك حيث كلّ الأسرار المُصانة، وستر التركيب وهو الالتقاء، وستر الدوائر وهو الحركة المعنويَّة للأرواح، وستر الغيب وهو الشوق، وستر الجبروت الأوسط وهو البرزخ، وستر النفس هو الخطّ الخياليّ والتصرُّف، وستر القلب وهو ستر المزجة الأولى وسرُّ الكيمياء.. وهنالك ستر النقل هو ستر الحروف والأعداد. كما ترون، يعتقد الساحر بدرر الإشارات.

اعتاد الحطَّابون ذبح ديكٍ أو جدْيٍ أو خروفٍ أمام بوَّابة مغارة الوثن الجدْي التي تحتلُّ مكانًا يُعدُّ بوَّابة طبيعيَّة لدخول غابات البلعاس. ومن يريد أن يخرج آمنًا كان عليه أن يُقدِّم ذبيحةً عند بوَّابة مغارة الوثن حتى يَرضى الجدْي ذو الوجهيْن ونصفه الذي يشبه السمكة.

وثنٌ غامضٌ بقي من زمن الأوثان، حيٌّ على نحوٍ خرافيٍّ في

أذهان السكَّان القلائل والمتفرِّقين في خرائب جبال البلعاس التي جُرِّدت في السنوات الأخيرة من أغرب غابات الأرض.

مع نهاية الأربعينيَّات من القرن العشرين كانت عمليَّات الاحتطاب الجائرة قد أجهزت على أهمِّ غابةٍ طبيعيَّةٍ مثمرة في خارطة المتوسِّط.

لم يرحم أهالي مدينتَيْ حمص والسلميَّة غابات البلعاس. احتطبوا غابةً نادرة لأجل تدفئة شتاءاتهم الباردة على مرِّ سنواتٍ طويلة، أعملت فيها فؤوس الحطَّابين، وحُملت أخشابها على ظهور الحمير، وكثيرٌ من الرحَّالة ذكروا رؤيتهم قوافل الحمير المحمَّلة بحطب البلعاس المتَّجهة صوب مدينتَيْ حمص والسلميَّة.

أعني كلمتي: «غابة نادرة»، هل سمعتم بغابةٍ من الأشجار المثمرة؟ تين ورمَّان وزيتون وبطم وعنب؟ لا أعرف أيّ ملكٍ رومانيٍّ عصفت به فكرة زراعة هذا البستان العملاق الذي تمدَّد مع الوقت وصار غابةً وحشيَّةً تؤوي الثمر والوحش بالكثرة ذاتها!

انفردت غابات جبال البلعاس بأهمِّ عشائر أشجار البطم المعمِّرة وعلى أنواعها، ومنها البطم الأطلسيّ، والتين والرمَّان والكرمة الوحشيَّة. تستوطنها الذئاب الشهباء والثعالب الحمراء، وحيَّاتٌ ضخمة تُروى عنها قصصٌ مختلفة. فحيَّات جبال البلعاس كبيرةٌ، لذا هي من الصنف الذي يبتلع البشر! غزلانٌ وقططٌ برِّيَّة وطيورٌ متنوِّعة، وتحوم في سمائها العقبان، وثمَّة غابةٌ كانت تُشرف على مسيلٍ مائيٍّ سُمِّيت بالمصقرة بسبب كثرة الجوارح في سمائها.

تتناثر هناك آثار البيزنطيِّين، وكلّ ما كُشف من آثارٍ في حنايا جبال البلعاس يدلُّ على أنَّ المنطقة كانت من أهمّ عواصم صنع الخمرة في بلاد الشام.

تشتهر تلك الجبال بالمغائر والصهاريج المنقورة في الصخر والتي كانت مخصَّصةً لتجميع المياه. يُقال إنَّ صهاريج البلعاس على عدد أيَّام السنة، إذن تحتوي على ثلاثمئة وستِّين صهريجًا صخريًّا.

هنالك من قال إنَّ الجدْي نصفه الأسفل حيَّةٌ ضخمة، وآخرون قالوا إنَّ نصفه عبارة عن ذيل سمكةٍ بشكلٍ أفعوانيّ. إنَّه يعيش في نبعٍ غامض في عمق المغارة التي لا يجازف أحدٌ بدخولها، وإنَّه كان يحرس طريقًا تعبره القوافل المنطلقة من مدينة حماة صوب مدينة تدمر وسط الصحراء التي تتاخم ذيول سلسلة جبال البلعاس.

لم تكن غابات البلعاس تسلم من الاحتطاب إلَّا لمدَّة اثني عشر يومًا من أوَّل كانون الثاني. كان تقليدًا متَّبعًا لدى الحطَّابين ويخشون مسَّ غصنٍ في تلك الفترة! وها أنا أعبر بوَّابة الغابة مع أعوان وخدّام أُمِّي اللامرئيِّين.

غدوت مع الوقت مثل أُمِّي. صرتُ خبيرةً بالأحجار الكريمة وقواها المدهشة، تلك التي نرصِّع بها مصاغاتنا. بعضها يزيد من إفراز اللعاب، وبعضها الآخر ينشِّط تدفُّق الدم. لكنْ لم تزيِّن عنقي قطّ زمرُّدةٌ أو ياقوتةٌ إنَّما حجر العنبر معلَّقٌ على كتفي.

وكَّلتْ بي أُمِّي خدَّامها وأعوانها لمواكبتي: «لن تشعري

بشيء، إنَّهم ليسوا للحراسة، هم للاستقواء، سيثقلون حقول الطاقة المنبعثة من جسدك ويقوُّونها، سيراهم الوثن الجدْي لأنَّ نصفه ينتمي للعالم الآخر، فهو من أصحاب زحل، وعلامته برج الجدْي الذي كان شعاره الفلكيّ، لأنَّ كوكبة الجدْي السماويَّة هي البوَّابة التي تعبرها أرواح البشر المطمئنَّة إلى السماء. كبرياؤه عظيمة وعناده رهيب، كائنٌ محيِّر».

سيطرت على تفكيري صورة «الوجهيْن». لِمَ الغرابة؟!

لكلِّ شيءٍ وجهان. للأقدار وللأيَّام والسنين.. لا نعبر إلى الحياة من بابٍ واحد!

لم يبدُ لي من أوابد جبال البلعاس أنَّ ثمَّة قلاعًا.. القلاع التي هي صورةٌ عن ألم البشر وخوفهم من الغدر. تنتشر الحصون والقلاع في البلدان المغدورة.

كيف ازدهر هذا المكان دون قلاع؟! لكنْ هنالك صهاريج صخريَّة. هل كان الماء هو سبب الأمان!

غاباتٌ فريدة مكوَّنةٌ من أشجار البطم والزيتون والرمَّان والتين كلُّها برِّيَّة. لكنْ ثمَّة من زرع كلّ هذه المساحة بأشجارٍ مثمرة. لا عجب أنَّ السوريّ في ظلِّ المواطنة الرومانيَّة كان مهندس قنواتٍ وأسوارٍ وقلاع، وبرع في كلِّ ما شيَّده.

لأغصان أشجار البطم حفيفٌ خاصٌّ بها. عثرتُ على مكانٍ فريدٍ للصمت والشرود الروحيّ حيث تتلمَّس دربك صوب اطمئنانٍ مفتوح.

أُخذتُ بسحر المكان. هل هنالك ملاذٌ أروع من الجبال! ارمِ

نفسك في حضن الطبيعة، واترك لها الباقي. في مثل هذه الأماكن تشعر بأنامل قوى وأرواح الطبيعة، لا غرابة أنَّ البشر تيقَّنوا دائمًا أنَّ الجبال مسكنٌ للآلهة، للأرباب المتغطرسين الذين يتسلُّون بمصائرنا! هنا لكلِّ شيء آذانٌ للصخرة والشجرة، وللنبع حوريَّاتٌ وجانٌ لا نراهم. لن يسمحوا لنا برؤيتهم بسهولة كي لا يفقدوا هالتهم وهيبتهم. مرَّةً أخرى «فتنة الاختفاء»! فتنةٌ لا مثيل لها.

السكون هو نظام الطبيعة السرِّيّ، هو مفتاحٌ لنبعٍ يغذِّينا دون أن ينضب. إنَّه سرٌّ يعلِّمنا التوقُّف للحظة وإطالة النَظر للسماء الزرقاء والأمداء الشاسعة. إنَّه شحنٌ للطاقة. نسيتُ مهمَّتي أمام فتنة المكان. أردتُ التوقُّف. الوقفة فنٌّ بحدِّ ذاتها، خطوة تسمِّرنا في مكاننا تحت السماء ذات العروش. قمَّة النضح عندما نعلم متى نتوقَّف، ونتأمَّل زهرةً صغيرةً في أصيصٍ على الشرفة. لا نتَّصل مع دواخلنا دون هذا المفتاح. تذكَّرت زهوري على شرفتي في مدينة دمشق. هنا أخذت بالفتنة. نعم، هنا كائنات لا نراها، لا أشكّ مطلقًا بوجود المردة والجان والحوريَّات، كلّ هذا الشجر والصخر والكهوف والينابيع ستفقد توهُّجها وتأثيرها إذا ما غادرها هؤلاء الذين لا نراهم.

تذكَّرتُ أنِّي جئت هنا في مهمَّةٍ مُحدَّدة. نفضتُ رأسي ورحت أستعيد الكلمات، نعم الكلمات هي كلّ شيء: «الكلمات هي السرّ الذي سأمنحك إيَّاه».

كلّ حرف هو ملكٌ مبجَّلٌ بصولجانٍ وتاج. للأحرف وجوهٌ مشعَّة بما يشبه اللهب، تقاطيعها كوجوهٍ قُدَّت من نارٍ متحوِّلة لا لحم لها.

تعتمل الحركة والشهوة في بعضها، وأخرى تشتغل في العمق. للأحرف ركوبيَّة عجائبيَّة قد تكون تنِّينًا أو حصانًا أو بُراقًا كأطياف الحلم. لكلِّ حرفٍ مطيَّة. هل تعرفون هذا؟ هل تعلمون أنَّ للأحرف طباعًا مثل بني البشر: بعضها ناريَّة وأخرى هوائيَّة، وأحرف ترابيَّة، وهنالك الأحرف المائيَّة؟

كان الذهول هو الكلمة التي تصف شعوري أمام مفعول الكلمات التي لقَّنتني خاتون نطقها. هذا هو السحر: يحوّل الأحرف إلى سفينةٍ تحملك إلى حيث تريد. يبني الساحر بالأحرف جسورًا اهتزازيَّة، لها مفعولٌ خارق، يُحرِّك قوى لامرئيَّة! الأمر يشبه ذلك. نُطق أحرفٍ وكلماتٍ بعينها وتكرارها وفق صيغةٍ رقميَّة مُحدَّدة يفعل الأعاجيب. لا أدعوكم للتصديق، لكنْ أشرح لكم بعض ما يحدث معي وأكتبه.

يقولون إنَّ للوثن الجدْي وجهيْن، أحدهما ينظر به إلى الماضي والآخر إلى المستقبل. ومن يريد لسنته أن تكون ميسَّرة، عليه أن يُقدِّم ذبيحته للوثن الجدْي في الأيَّام الأولى من شهر كانون الثاني.

نهى مشايخ الدين بصرامة عن تلك العادة، ولكنْ هنالك من ظلَّ يذبح ذبيحته سرًّا أمام مغارة الجدْي ذي الوجهيْن، والذي يُعتقد أنَّ ذيل السمكة الذي يملكه يساعده على السباحة كلّ يومٍ إلى بوَّابات السماء!

مشيتُ وتجاوزت شجرة بطمٍ بعيْنها معمِّرة، وصفتها لي أُمِّي بدقَّة. هذه المرَّة ربطت على عضدي الأيمن حرف الشين منقوشًا

على عنبر، وقد كُتب الشين ثلاث عشرة مرَّة يوم السبت في ساعة زحل، لأستفيد من مدد هذا الحرف الشريف الناطق البارد الرطب تارةً واليابس تارةً أخرى. كان الإسكندر الأكبر ينقشه على عنبر ويزيِّن به أحد فصوص تاجه، وقد كُتب حرف الشين ثلاث عشرة مرَّة، فلا يراه أحدٌ إلَّا أحبَّه ودخل تحت طاعته.

السكون المسيطر على غابات البلعاس ذكَّرني بغرفة السكون. غرفة أُمِّي التي لم تكن تسمح لأحدٍ بدخولها قطّ. تختفي فيها عندما تقرِّر الصيام عن الكلام: «دون السكون لا يمكن أن أستدرج الأرواح النيِّرة التي تمنحني الرؤى».

علمت في وقتٍ مبكر من حياتي أنَّ الكلام ليس ضروريًّا للتعبير عن الأشياء. هنالك الصمت.

عند جذع شجرة البطم، وقفت وتطلَّعت إلى طلوع الشعرى اليمانيَّة وقد طلعت والقمر في برج الجدْي. صاحبه كوكب زحل، ويحكم من البلاد الحبشة والسند والبحرين والهند ومكَّة المشرّفة والقلزم والقرم وخوارزم والكوفة. إذا طلعت الشعرى في الجدْي تخرج ريحٌ تُسمَّى ريح القبول. وأكثر الرياح في هذه السنة غربيَّةٌ ميسَّرة باردة، وتكون السماء نيِّرة، ويطلع الفرات وتستعجل مياهه وتُفسد الأشجار. يكون الشتاء باردًا ويكثر المرض في الشيوخ، وتكثر الحيَّات في الفرات، ويقلّ الزيت والخمر والعسل، ويموت رئيسٌ عظيم ويهلك، وينصلح التمر، وتظهر الكواكب ذات الأذناب في المغرب عند شروق الشمس، ويهلك في البحر خلقٌ كثير. يكون لون السحاب أشهب، ويقلّ الزيت والزيتون، ويربح الدينار دينارًا آخر.

أطلقتُ بخُوري ونطقت بعبارات أحرفٍ يمسك خيوطها كوكب زحل وهي أحرف «أبجد»، أي «ألف وباء وجيم ودال» نُطقت بمفردات أُمِّي، مظهرات العجائب.

لمحتُ في البداية ذيله، لكنَّني ظننته ثعبانًا ضخمًا لكنَّه كان الجدْي الوثن بذاته. اتَّكأ على جذعه الأفعوانيّ على بعد حوالى ثلاثين مترًا عنِّي. بيني وبينه أغصانٌ وأعشابٌ وشجيراتٌ قزمة. لكنَّ وجهه الواثق والذكيّ والمبتسم كان جليًّا، استدار فجأةً وتذكَّرت أنَّه ذو وجهيْن. لا أخفيكم: انخطف قلبي من الرعب.

بدأ بخطابه: «كيف هي خاتون المغوليَّة؟ هل ما زالت وفيَّةً لأُمِّها البجعة؟ أتسكب الشاي وتريق لبن الفرس كلّ منتصف شهر؟!»

عقدت ذراعيَّ ووضعت إحدى يديَّ تحت ذقني دون أن أنتبه لوضعيَّة جسدي. فقط أردتُ أن أتماسك، بينما كان الوثن يقول:

«تعلم خاتون، أنَّ السحر يورَّث، وتريد أن تهيِّئك».

قلت بشيءٍ من الاعتراض: «درستُ الفلسفة في دمشق، ولا أعتقد أنِّي سأُمارس العِرافة والسحر مطلقًا، لكنَّني اعتدت تنفيذ أوامرها، يكفيني الفضول وحده لفعل ذلك».

جعلتني ابتسامته العريضة ـ التي تشي بمكرٍ دفين يحاول أن يواريه بجهد، خوفًا من أن يجفلني ـ أطمئنّ أكثر وأسترخي، وأتلمَّس جذع البطم وأستند عليه بشيءٍ من الراحة، بينما قال هو:

«الفضول، هل تعتقدين أنَّه أمرٌ ضئيل؟ وهل تغيّر العالم إلَّا بسبب الفضوليِّين؟»

بدا واضحًا أنَّه محاورٌ بارع، تابع:

«الفضول يعني الأسئلة وهذه تستدعي الإجابات، والإجابات هي دروبٌ نسلكها. والسحر قد يسهِّل علينا تلمُّس الدرب السليم في الحياة، لأنَّ السحر لغة إشارات، وهذا الكون الفاتن كلّه دلالات وإشارات، علينا أن ننتبه ونقرأ لنفهم، لتتيسَّر حياتنا».

انتبه إلى إنصاتي، واسترسل في حديثه:

«السلامة تكون في الرضا. القانعون، الراضون، هم المطمئنُّون، وهؤلاء يكون إغواؤهم صعبًا. وهم من يمتلكون المفاتيح، ويسهل عليهم العيش والاستمتاع مع الحفاظ على كبريائهم».

ردَّدت بعفويَّة: «بالاستمتاع، اللذَّة...».

أومأ برأسه موافقًا:

«دون اللذَّة هنالك جوع، والجوع يسبِّب الأرق. لا يستسلم الجوْعى للنوم. نُحرِّر أنفسنا من استبداد الرغبات بالغذاء السليم.. يلزمني التفكير المنفتح، فلتعشِّش في رأسك حمامة، تُحلِّق في خفَّةٍ أينما أرادت، هذا هو بالضبط التفكير الحرّ».

فكَّرتُ بقوله، وتذكَّرت فيلسوفًا يصف العقل الحرّ بالثعبان، والوثن الجدْي وصفه بالحمامة. أحببتُ الفكرة.

قال الوثن:

«اسمعي: السحر إلهامٌ وتفاؤل، معه نؤمن أنَّ كلّ شيءٍ ممكن. أن تكون معجبًا بكلِّ ما حولك، أن تكون شغوفًا بلا قيدٍ أو شرط. السحر هو إيمانٌ بإبداعٍ لا يمكن للعلم أن يشرحه».

قال باتِّفاقٍ تامّ:

«هذه هي الحكاية: إرضاء المذاقات والحواسّ الخمس حتى لا تشغلنا عن الإحساس بالعالم اللامرئيّ. تعلمين أنَّ من قَطَن هذه الأراضي وعمَّرها ذات زمنٍ كانوا يعتنقون الفلسفة دينًا. كان سكَّان هذه الأرض يقدِّسون الحياة إلى حدٍّ أنَّهم كانوا يهتفون في وداع «الميت» وهو محمولٌ على النعش: «لقد عاش حياته». عانقي واحضني وشمِّي وتذوَّقي تلك الأفكار التي تؤدِّي إلى طيِّب العيش. سيأتي يومٌ وتواجهين الموت، وهنا ستفكِّرين إذا ما كنتِ ستغادرين كضيفٍ شبعان! احلمي وعيشي، لكنْ لا تسمحي لطموحاتك أن تتحوَّل إلى جشعٍ يُفسد رضاكِ عن نفسك وحياتك».

لاحظ استغراقي في الإنصات إليه. لاحت ابتسامة رضى، وتابع كلامه:

«أحد وجوه الحياة هو حيلة، جوهر هذه الحيلة رؤية الجمال وغضّ البصر عن القبح. انظري إلى النجوم واملأي بصرك ببريقها، وانعطفي أينما شممتِ رائحةً للخطر والحزن والخوف، وغيِّري مسارك. الحياة روائح والدروب روائح، تشمَّمي الريح في كلِّ لحظةٍ لتكوني جاهزةً لتغيير دربك والهروب بعيدًا عن الخطر. راوغي الدروب وتملَّصي من تلك الوعرة، فالحياة منحةٌ عظيمة ينبغي أن نعيشها بكلِّ ما أوتينا من شغف. تذكَّري في كلِّ لحظة نعمة الوجود ومنحة الحياة بالنظر والتنفُّس والشمّ والتذوُّق والامتنان للنِّعم. لأجل سعادتك واطمئنانك، غادري الغابة واعبري البحر وتجاوزي الصحراء واعثري على عالمٍ تشعرين بالامتنان نحوه..».

قبل أن أستيقظ من سكرة الاستماع لتلك الحكم النديَّة كان الطيف قد تلاشى، وكأنَّه ما كان.

تلفَّتُّ حولي، شغلني الجمال المُضاء بعروش السماء المنيرة. ترسل الأغصان ابتسامةً، والبومة القريبة الصامتة تقول شيئًا لي أنا وحدي. ينبغي أن ننفتح على أقصى الدرجات ليتغلغل الكون فينا، لتنفذ إلينا أضواء السماء التي ستمنحنا نظرة، لو أجدنا مبادلتها النظر. ستدخل سكينتها إلى أعمق أعماقنا. أخذني الصمت. نشوة السكون. لحظةٌ نادرة نحاول أن ندخل فيها إلى أعمق نقطةٍ في داخلنا، فنمسك ذلك التناغم السرِّيّ الذي يُشبه حفيف أوراق الشجر متحالفًا مع خرير المياه. تتناغم دواخلنا مع أجسادنا، فنغدو أجمل وأزهى.

ذكَّرتني شجرة البطم العملاقة بضآلة الشقق الصغيرة في المدن، التي تُحوِّلنا إلى دمى مفكَّكة إذا لم نتقن طقوس لملمة ذواتنا وإنارتها بالأسرار الصالحة. كانت أُمِّي تكتشف كلَّ ما بداخلي من نبرة صوتي. كلَّما عدت إلى القلعتيْن تلتقط ما يحدث لي، فتُعيدني إلى نفسي. تبتسم خاتون وهي تُخبرني كيف أنَّ نبرة الصوت تقول شيئًا يختلف عمَّا تُدلي به اليدان! يفضح جسدنا الانجراف المرّ الذي تكتسحنا به الحياة اليوميَّة الصاخبة وسط الضوضاء.

تمرَّنتُ على طقوس الصمت والخلوات والاستحمام وصحبة البخُّور وضوء الشموع لأحافظ على إشراقات الروح العطريَّة والتناغم. نعم، التناغم هو الثروة الحقيقيَّة التي ينبغي أن نمتلكها. دونها لا يمكن أن نكون ممغنطين بالغواية فنلعب لعبة الجذب للأقدار ذاتها.

صدِّقوا ما أقول: مثلما يمكن أن يُغرم بنا الآخرون، أيضًا يمكننا لفت أنظار الأقدار!

يمكن أن تقع الأقدار في غرامنا. نستدرجها كما يفعل الوعل مع الظبية.

تعلم الغابات والجبال والسحب والبحار والينابيع حجم قوَّة أولئك الذين يعلمون عمق قوَّتهم الخفيَّة والحقيقيَّة، فيناورون الأقدار كما لو أنَّها ظباءٌ أليفةٌ جميلةٌ لذيذة الطعم، هؤلاء هم النمور الحقيقيُّون. نمور العزلة، نمور القوَّة المكتفية بذاتها، هذا هو السرّ، أن لا تعتمد على أحد. قدراتك أنت، ركضك ولعبك وفخاخك وكمائنك وتسلُّلاتك ومخابئك وراء الأكمات، يبدو أنِّي شطحت كثيرًا، اغفروا لي، أُجَنّ كلَّما فكَّرت بفهدٍ أو نمرٍ أو وحشٍ يحكم غابته.

تضحك منِّي خاتون كلَّما قلت لها «أتعلمين لمَ النمر جميل؟! لأنَّه يأكل ظباءً جميلة. لا يأكلُ النمر إنَّما يتغذّى، ينبذ الأكل باستعجال، يُحسن الإصغاء لما تهمس به المعدة. تطبّب الأجساد نفسها باشتهاءاتها. يسحب طريدته إلى أعلى غصنٍ في الشجرة، ويشرد قبل أن يأكل. أُحدِّثكم عن فتنة أن نأكل ما نرغب. إذا ما رغبت بتفَّاحة اِلمسها وشمّها، وأمعن النظر بجمالها، باستدارتها وملمسها ولونها، ثم كُلْها. سينعكس جمالها على وجهك وابتسامتك. إذا ما انتبهنا لحسن تفَّاحة يمكننا أن نسرق بعضًا من جمالها.

تمرَّنت على سماع الصوت الصامت، الكلام الذي يتدفَّق من الغرف الخفيَّة في أعماقي. شرط هذا كان الاختلاء. انشغالنا بالخارج هو إهمالٌ مؤذٍ للداخل. لا بدَّ من دقائق نقتنصها من ساعات النهار لنسلك سلوك الناسك.

4

شبح قناة العاشق
حكاية ملك سَلَميَّة وأميرة أفاميا

عندما يولد الأمراء يكون هنالك منجِّمان: أحدهما يسجِّل ساعة الولادة بدقَّة، والآخر يكون على الشرفة يراقب ويتمعَّن بحركة أفلاك الليل أو حركة الشمس. لا براءة في الإشارات. الظواهر الطقسيَّة والهالات القمريَّة والرعد والبرق والريح والمطر ومراقبة الرياح. يتشمَّم الساحر الرياح، ففيها يتحرَّك الجانّ ويسرِّبون الأخبار للآذان الفطنة. ألوان النجوم والكواكب السيَّارة والخسوف والكسوف كلّها تُخبر شيئًا عن المستقبل إذا ما «انتبهنا»، والعرَّاف أخبر ملك «أفاميا» أنَّ الأميرة الوليدة ستُطفئ ظمأ مملكته، أفاميا. لكنَّه لم يخبره بالبقيَّة!

ثمَّة حقيقةٌ تاريخيَّةٌ واضحة تقول:

قناةٌ مائيَّة حُفرت وشُقَّت وبُنيت قساطلها بسبب العشق.

كان الماء مهرًا للأميرة التي أرادت جلب الماء لقومها. حدث ذلك قبل حوالى 2000 سنة. وقع أمير مدينة سلميَّة بغرام أميرة أفاميا قرب مدينة حماة. ولإثبات حبِّه شقَّ قناةً بطول مئة وخمسين كيلومترًا، لتصل مياه عين الزرقاء العذبة من براري سلميَّة إلى مدينة أفاميا.

قصَّة حبٍّ من طرفٍ واحد. لو أنَّ الأميرة بادلته المشاعر ذاتها لما طلبت منه مَهرًا شاقًّا وصعبًا. نفَّذ أمير السلميَّة ما طلبته معشوقته، وتزوَّجها.

* * *

لا تتوقَّف السيَّارات العابرة ليلًا على هذا الطريق. هنا، نحن أمام صنفٍ يعرَّف عنه عالميًّا بـ «شبح الطرقات»، وقد كتب غابرييل ماركيز مقالة شيِّقة بقلمه البارع عن أشباح الطرقات.

لكنَّ شبح دروب سلميَّة المحاذية لقناة العاشق هو شبحٌ غادَرَ القصور وهام على جنبات الطرقات.

إنَّه شبحُ لِطيْف امرأةٍ طويلةٍ غامضة ترتدي عباءةً سوداء ووجهها أبيض لامع بلون الزجاج. يحدث ذلك غالبًا على مشارف السلميَّة حيث تُحاذي خرائب قناة العاشق الطريق على نحوٍ قريبٍ جدًّا.

تردَّدت كثيرٌ من الأقاويل والحكايا عن امرأةٍ غامضة يقلُّها بعض العابرين ليلًا. لمرَّاتٍ كثيرة تكرَّرت القصَّة ذاتها. تظهر امرأةٌ في بقعةٍ خالية من البيوت والبشر، وتطلب من السائق أن

يقلّها معه إلى الطريق الذاهب صوب حماة. غالبًا ما تختفي حالما يصل. إذن، شبحٌ يريد أن يفرّ من سَلميَّة! تحدَّث بعض الذين نجوا من حوادث السير، عند تلك البقعة المستوية والخالية من المنعطفات الخطرة، عن طيف امرأةٍ لاح فجأةً أمام السيَّارة، ويقع الحادث خلال محاولة تفاديها!

* * *

يعشق الرجال بأعينهم. لا حبّ بلا رغبةٍ جنسيَّة. في دنيا الحبّ كلّ شيءٍ ممكنٌ ومباحٌ ومقبولٌ مهما كان غريبًا، وكلّ ما يتعلَّق به يشكِّل سيرةً جذَّابة ومغرية.

يتَّسم حبّ الملوك بالنرجسيَّة العظيمة. لا يقبلون الرفض أو المراوغة. كما الإسكندر الذي فكَّ عقدةً مستعصية في معبد آمون بالسيف. يحسمون أمورهم بحدِّ السيف والقوَّة. كان أكثر ما اشتهر به ملك سَلميَّة غرامه بالثعالب وتربيتها كحيواناتٍ أليفة.

كانت أميرة أفاميا في الواقع مغرمةً بأحد قوَّاد جيش مملكتها «أفاميا»، لكنْ تقدَّمَ ملك سَلميَّة لخطبتها وأفسد قصَّة غرامها. ولأنَّها لا يمكن أن ترفضه، تذرَّعت بالمهر. أرادت قناةً مائيَّة تحمل المياه العذبة من سلميَّة إلى أفاميا لتروي ظمأ المملكة القريبة من مجرى نهر العاصي، وليس صعبًا استجرار مياهه للمدينة.

لم يفت ذلك الملكَ العاشقَ الذي أذعن وجلب أشهر مهندسي القنوات في ذلك الزمان، وخلال مدَّةٍ وجيزة شُقَّت القناة، وغدا المهر جاهزًا وزُفَّت الأميرة الحائرة، بينما تعشَّش في

أذنها عبارةٌ همستها أُمّها: «نحن لا نختار أقدارنا، وإذا ما عبثنا معها فإنَّنا نلعب مع الموت وجهًا لوجه».

تهامست جواري قصر ملك سَلميَّة عن حقيقة أنَّ مربِّية الأميرة قد لعبت لعبةً خطيرة، وأتاحت له أن يتجسَّس على جسد الأميرة خلال استحمامها. أرادت المربِّية أن تُخرج ابنها من سجون سَلميَّة ـ وكان قد أُدين بقتل شريكه في تجارةٍ للحرير.

لا يعلم أحدٌ على وجه الدقَّة كيف خطرت لها تلك الفكرة وكيف تجرَّأت على إرسال عرضها مع شاعر البلاط!

وعدت ملك سَلميَّة أنَّه سيرى أروع جسد امرأة يمكن أن يراه. يبدو أنَّ كلام المربِّية كان صحيحًا، فتقدَّم لخطبة الأميرة. وعلى الرَّغم من تمنُّعها وإذلالها له بذلك الطلب الغريب أصرَّ على أن تكون مُلْكًا له.

تعلم الزوجة الأولى لملك سَلميَّة وأمّ ولده ووريثه الوحيد، أنَّ تاج الملك لا يمكن أن يحميه من صداع الحبّ وأرقه. ولا يكترث الرجال بنبالة امرأةٍ أو فضيلتها أمام اشتهاء جسدها. وعندما ترقص الشهوة يغيب العقل. لم توفِّر وسيلةً لصبِّ الشائعات التي تقول إنَّ للأميرة علاقةً بقائدٍ عسكريٍّ من قوَّاد أفاميا.

قيل إنَّ الأميرة قد قامت بزيارةٍ لكاهنة معبد «المرأة الحمامة» في مملكة منبج، وقدَّمت لها القرابين للبحيرة المقدَّسة التي تسبح فيها أسماكٌ مزيَّنةٌ بالذهب، ولا تقبل قرابينَ غير الأطفال الصغار المحمولين في أكياسٍ صغيرة يُرمى بهم من أعلى المعبد إلى

أعماق البحيرة التي تحكمها جنِّيَّةٌ بحريَّةٌ ومائيَّة يُسمِّيها العامَّة: «بنت زحالف»، بينما تُذكر في وثائق التاريخ باسم الربَّة الحامية «أتراغاتيس»، التي تتقبَّل النذور والصلوات، ويُحجُّ صوبها سباحةً حيث ينتصب تمثالها الرخاميّ وسط البحيرة المقدَّسة. وجرى الحديث الآتي بين الكاهنة والأميرة:

سألت الأميرة: كيف أُغيِّر قدري؟!

قالت الكاهنة: لا مدرسة تُعلِّمنا كيف نُغيِّر أقدارنا، لكنْ يمكن التحايل عليها.

الأميرة: حين يقرع جرس النصيب، كيف يمكننا أن نحتال عليه؟

الكاهنة: يحلم الملوك بشيئيْن: «النصر والنساء». وكلّ من حولهم كما جنودهم، يخوضون الحروب، ولا يتمنُّون غير السلامة.

صمتت الكاهنة قليلًا، وكأنَّها تعتصر كلّ خلاصة تجربتها في الحياة وهي تتابع وعظها لأميرة أفاميا:

«ابتسمي له، تُخدِّرهم المرأة ذات الثغر الباسم. لا تعترضي، وقولي نعم، أطيعه، نعم، الطاعة هي الخدعة المثاليَّة للنساء. لا يمكن معارضة الملوك، لكنْ من الممكن خداعهم».

أذعنت الأميرة لقدرها، وزُفَّت لملك سَلميَّة الذي عاملها بمزيجٍ من القسوة والرقَّة، بينما ظلَّت هي مسالمة في كلِّ الظروف مع ابتسامةٍ حزينة كما كلّ امرأةٍ انشطر قلبها.

لماذا شوَّشت حياتَها بلحظة صمت وافقت فيها على كلّ

شيء؟ نعم، حبيبها وابن مملكتها كان مجنونًا بها، جنونه يتخطّى الحدود والحياة والعواطف.

لم يكن ينبغي لهذه الحكاية أن تكون، كان يُفترض أن يحصل كلّ ما هو نقيض ما حدث!

هل هو الحلم الساذج أن «نُعيد تشكيل كلّ شيء» وفق أهوائنا!؟ أن تجري سفننا مع الريح التي نبتغيها أن تهبّ؟ أن نُحرِّك الريح بالاتِّجاه الذي نريد، أن نملك جرأة عدم النظر إلى الشاطئ؟ أن نُبحر؟

لم تستطع الإفلات من كلّ شيءٍ كما أرادت. فاتها أنَّ زوجها سيلتقط علامة الحبّ الخطرة بسبب تحرُّكاتها واختفاءاتها، وشرودها، وتقلُّبها في الفراش وتبرُّمها من ملامساته. لم تعد تمنحه ثغرها. تتذرَّع بالنوم والتعب والمرض. لم يكن ذلك صعبًا. تتبَّع خطاها وحركاتها، والتقطها بالجرم المشهود.

* * *

يعلم الجميع أنَّ ملك سَلميَّة قتل الاثنيْن: زوجته وعشيقها وقام بتقطيع جسديْهما ونثر أشلاءهما على طول القناة المتَّجهة صوب وطنها أفاميا، بينما رُمي جسد عشيقها في مجرى نهر العاصي الهادر المتَّجه صوب الأمانوس. أراد بذلك تشتيت روحيْهما. أراد تضليل الروحيْن عبر تفريق أجزاء الجسديْن. لعلَّها أكثر المراوغات قسوة! لكنَّ شبح أميرة أفاميا ظلَّ يتلمَّس دربه كالأعمى، شبحًا محزونًا يريد وسيلة نقل! تريد أن تصل أفاميا وتلحق مياه العاصي لتبحث عن أشلاء حبيبها! هل هنالك تفسيرٌ آخر؟

أرادت خاتون المغوليَّة منِّي لقاء طيف أميرة أفاميا.

أين سألقاها يا أُمِّي؟!

في المنعطف الذي تتفرَّع فيه قناة العاشق صوب مدينة سَلميَّة، مكانٌ خرب داثر تعيش فيه الثعالب.

تُقدِّس أُمِّي الوقت، لكلِّ شيءٍ أوان. وهذا يشمل علاقتنا مع الزمن ذاته ومع النجوم التي فوق رؤوسنا. لا فوضى.. كلّ شيءٍ منظَّم، وعلينا أن نكون جزءًا من هذا النظام وهذا التناغم بين البريق واللمعان والضوء. ما أقلّ المرَّات التي يمكن فيها التقاط نبض الكون عبر سكونه! هذا ما حدث معي وأنا أتمشَّى بخطًى متوجِّسة وحذرة صوب المنعطف الذي تحوَّل إلى كومة أتربةٍ نبتت عليها أشواكٌ وحشائشُ صحراويَّة قزمة، وتشكَّلت تحتها مستعمراتٌ للثعالب على طول خرائب القناة الواصلة بين أفاميا وسَلميَّة.

أشرقت الشعرى اليمانيَّة، والقمر عند طلوعها كان في الجوزاء. وهذا البرج صاحبه عطارد. له من البلاد مصر وبرقة وأرمينية وجرجان وخوارزم والقيروان وصور.

ستكون الرياح شرقيَّةً ويخسف القمر، وهو دلالةٌ رديَّة للحكَّام والملوك من هذا البرج. تكثر الشهب ويخصب العشب ويُقبل الزرع المتأخِّر. ويحدث في الناس أوجاعٌ بالمعدة، وتسلم الحوامل من النساء، ويثور وجع العيْن، ويكثر جور السلطان، ويكون حربٌ في البلاد، ويكثر الإفلاس في الناس وتتضرَّر أحوالهم. يموت أشراف الناس ويقاتل الناس بعضهم بعضًا،

ويكون الهرب من مكانٍ إلى مكان. ومن كان أوَّل اسمه «حاء أو راء أو هاء» يتجنَّب ركوب البحر وتحوم حوله الريح الرديَّة.

تلفَّتُّ حولي وأنا أُفكِّر بخدَّام الحرف «الحاء» الشريف الصامت البارد الرطب المائيّ، له يوم الخميس وكوكبه المشتري. كان الإسكندر الأكبر يكتبه على جلد نمرٍ ويسحقه بعد حرقه، ويكتحل به فيرى الأرواح من غير حجاب.

تعلم خاتون أنَّ رحلتي صعبة، فاستعانت برسل كوكب المشتري وحرف الحاء من هو بارعٌ بكشف الغوامض. جعلتني أكتحل بذلك الذرور، وحمَّلتني بخُّور اللبان والمستكي والجاوي، واستعنت على خوفي من ذلك الخلاء بنطق التعويذة، وبدأتُ: «يا ملح يا مليح يا جوهر فصيح..» تعويذةٌ عمودها الفقريّ هي أحرف الشين والتاء والثاء والخاء، أحرف عطارد. أحاط بي دخان بخُّور الأسماء وعجائبها. تمرَّنت كثيرًا على دخول الخلوة والبُعد عن الألفة والأصوات الشاغلة، والاغتسال مرَّتيْن، والاعتياد على طعم خبز الشعير وحلاوة التمر والزبيب. كنتُ مأخوذةً بهواجسي الدفينة عندما أحاط بي ضباب الأطياف.. تناهى إلى سمعي ضباح الثعالب، نعيب بومةٍ ما وقفت قريبةً منِّي دون أن أحزر مكانها بدقَّة. تحرَّكتْ حولي كائناتٌ زاحفة لم أرها بدقَّة، هبَّت نسائم عليلة ونديَّة محمَّلة بروائح أعشاب البوادي الفريدة.

ثبت جسدي وأخذت نَفَسًا عميقًا، وقمت بنطق معادلات أُمِّي الحرفيَّة وردَّدتها كمن حفظ درسه جيِّدًا. للحال، أخذني تفكيري إلى جدِّيَّة أُمِّي بإصرارها الدائم على أنَّها وكَّلت خدَّامها بي. من

هم؟ خدَّام لامرئيُّون؟ هل هم من الجانّ؟ كلّ ما أعرفه أنَّهم لامرئيُّون، يمكننا الاستعانة بهم عبر نطق الكلمات الصحيحة مع الأرقام السليمة. رياضيَّات حقيقيَّة بدت أسحار خاتون المغوليَّة.

كنت أنظر إلى السماء عندما انتشلني صوتٌ أنثويٌّ جافّ ومتحسِّرٌ ومباغت:

«لا تكثري النظر إلى ما حولك، الأجدى بكِ أن تنظري إلى ما بداخلك».

لم أُخطئ. كان الطيف قريبًا منِّي. أنهت عبارتها وهي تخبط بعصبيَّةٍ على صدرها حيث قلبها. لمَ المفاجأة؟ فهي أنثى عذَّبها قلبها وماتت في سبيله!

«مرحبًا.. مرحبًا».

ردَّدت تحيَّةً بسيطة. كنت حائرة. لم تبدُ أنَّها امرأةٌ تُمسك بزمام نفسها جيِّدًا، كان اضطرابها واضحًا، اضطراب النساء العاشقات! طيفٌ مرتبكٌ ومشوَّش.

«الحبّ ليس مصادفة، إنَّما موعدٌ كونيّ».

فكَّرتُ. من تكلَّم عن الحبِّ؟! يتكلَّم البشر من تلقاء أنفسهم عن سبب حزنهم.

تابع الطَّيْف كلامه بنبرةٍ فيها شرح شيءٍ عصيٍّ على التفسير:

«مخطئٌ من يعتقد أنَّ للحبِّ طعمًا واحدًا: إنَّه حلوٌ كالعسل ومرٌّ كالحنظل ومالحٌ كبحرٍ وحامضٌ وحارٌّ ولاذعٌ وسامّ.. الحبّ نكهاتٌ تتقاتل وتتحارب لتصنع فرادته، لهذا ظلّ الحبّ دائمًا عصيًّا على التفسير أو التعريف. الحبّ كما كلّ الأسرار الغامضة

التي فكَّر بها البشر، كالعقل الجبَّار والكون الواسع ولغز وجودنا المحيِّر. هنا على هذه الأرض، الحبّ يختزل كلّ ذلك».

لم يأتِ الطَّيْف على ذكر أُمِّي.

كلام الطَّيْف على الحبِّ فيه تبريرٌ لحالة العشق التي أنهت حياتها.

انعكس ارتباك الطَّيْف على هيئته غير الواضحة. انتبهت لحركة اليديْن. اليدان خائنتان، بل وأكثر من ذلك ساذجتان.. تخبران من حولنا عن ثغرات ضعفنا، تفضحان الصرير والصدأ الذي قد نفطن ونخبِّئه عبر خفض أصواتنا، لكنَّ اليديْن لا يمكن أن نضمن ولاءهما. الجسد! لا ولاء له. لا يمكنه أن يكون وفيًّا لروحٍ مضطربة إنَّما سيتصرَّف مثل أرنبٍ مذعور. كان الطَّيْف مشتَّتًا يأكله الذعر من الماضي. أسوأ شيءٍ يحدث لإنسان: الندم.

لمستُ الندم الجافّ، على الرَّغم من إصرارها على الدفاع عن حالة «الحبّ»، وكأنَّ قصَّتها هي كلّ قصص الحبِّ في العالم.

الندم.. كم حذَّرتني منه خاتون! هو كراهيةٌ لا شفاء منها. هؤلاء النادمون هم أُناسٌ انحفر ماضيهم في أعماقهم كرصاصةٍ دخلت ولكنْ لم تقتلهم، تهدِّدهم إذ يمكن أن تتحرَّك وتنزلق في أيَّة لحظةٍ وينتهي كلّ شيء. لكنْ هنا أمام هذا الطَّيْف تجسَّد الندم واضحًا على الرَّغم من الإباء الذي اكتنف الأميرة.

انتبهت من غفوتي الحلميَّة الغريبة وأنا وحدي، وثمَّة ظلالٌ متراقصة لثعلبٍ يتلصَّص عليَّ من بُعد. لا غرابة أن يكون طيْف

الأميرة متُردِّدًا ومتحفِّظًا وعطشًا لشيءٍ غامض! الحبّ مرَّةً أخرى، تريد أن تُحذِّرني خاتون على طريقتها.

تلمَّست كلتا يديَّ. كانت من التمارين الصعبة التي أجبرتني عليها أُمِّي. تعلَّمت الكتابة باليسار واليمين! لِمَ؟ لأجل التوازن، والتناغم، كما تقول خاتون. ينبغي أن نكون معافين ومتوازنين ومنسجمين مع أطرافنا وجوارحنا وأفكارنا ومشاعرنا، أي ينبغي أن نكون ميزانًا يمشي على قدميْن.

اجتاحني هلعٌ مباغتٌ وانكمشتُ على نفسي. اختفى طيْف أميرة أفاميا وانطفأ البخُّور. ومضت عيون الثعالب عن بعدٍ وسط عتمةٍ صوفيَّة، بينما ومضت نجوم السماء بحبور وعاد إليَّ الانتعاش، وغمرني شعورٌ بنشوة العبد المعفى عنه.

أيُّ مكرٍ وكبرياءٍ يُثاران في أنفسنا كردِّ فعلٍ على التفكير في الثعالب؟!

5

أشباح قلعة طراد في بادية حماة والعرّافة «هيلا الصبِّيَّة»

هنالك خديعة أزليَّة أتقنها السحرة منذ أقدم الأزمان.

تكون بالإمساك بثعبانٍ يتجاوز عمره الألف عام، وتكون لهذه الخديعة القدرة على الطيران، ويمكنها أن ترمي الفارس عن فرسه. يعمد الساحر إلى شقِّ الثعبان بسكِّينٍ من الذهب، ثم يُحشى بالملح ويُدفن عند بوَّابة الكنز المراد حمايته. هكذا، سيتراءى الثعبان المحنَّط بالملح والتمائم السحريَّة الغامضة لكلِّ متطفِّلٍ على أرض الكنز.

على بعد حوالى ثلاثين كيلومترًا شمالي شرقي مدينة حماة، ثمَّة تلٌّ صناعيٌّ من تلك التلول الكثيرة التي خلَّفتها الحضارات المتعاقبة على المنطقة، وقد نقل الأهالي معظم صخور القلعة التي

حملت اسمًا عربيًّا خالصًا «طراد»! وبالكاد يلمح أثرها، لكنْ ثمَّة بابٌ سرِّيٌّ في أحد أساساتها يؤدِّي إلى كنزٍ مرصود.

ينبغي على المتجوِّل بين أطلال القلعة أن يحذر من رؤية ثعبانٍ كبير، يتلوَّى فجأةً فيجفله ويدفعه للفرار دون عودة. ثعبانٌ من سرابٍ تلفِّقه تميمة قيلت قبل زمنٍ طويل.. على الرَّغم من مرور الزمن نبقى ممسوسين بقوى غامضة أطلقها أرباب الماضي. البشر والآخرون الغامضون قد لا يلتقون، لكنْ تتلامس أصابعهم في لحظاتٍ شفَّافة يختارها الزمن.

يعلمُ السحرة أنَّ الأشباح والعفاريت والسعالى لا تُقتل إنَّما تُطرد. لا يمكننا قتل شيءٍ لا نمسك به أو لا يمكننا لمسه!

لأجل ذلك، شاع الكثير من الممارسات والطقوس لأجل طرد ثعبانٍ وهميٍّ يحرس بوَّابة مغارةٍ تخبِّئ كنزًا مرصودًا.

اشتهرت قلعة طراد قبل حوالى نصف قرن عندما سكنت هناك عرَّافةٌ صابئيَّة اسمها «هيلا». سكنت قبَّتيْن من الطين مسوَّرتيْن بجدارٍ من الحجارة السوداء، وتشرفان على مجرى نهيرٍ صغير يشتدّ جريانه في الشتاء. اشترت المكان من ورثة أحد بكوات مدينة حماة.

إذن طيْف هيلا هو موعدي الجديد.

لمحتُ من بُعد الأشجارَ المعمِّرة التي زرعها البيك الحمويّ قبل أكثر من قرن. كينا وسرو ودفلى. عن قرب، اكتظَّ المكان الترابيّ الملامح بأكبر مستعمرة أشجارٍ من تين الصبَّار، كذلك الدفلى.

كان قرب المكان صبيَّان وعدَّة فتياتٍ صغيرات يعتنون بقطيعٍ صغيرٍ من الماشية. تَجْمَع الفتيات الخبِّيزة وغيرها من أعشابٍ تجود بها البادية الخصبة في الربيع على نحوٍ لا يوصف. بدا المكان فائضًا بالأقحوان وشقائق النعمان والأشواك التي تحمل رؤوسًا بنفسجيَّة وقرنفليَّة أخَّاذة. حيَّيْتُ الصبيَّيْن اللذين حافظا على جلستهما المسترخية قرب حمارٍ أبيض شبه نائم، بينما تحلَّقت حولي الفتيات وقد فاحت منهنَّ رائحة الصعتر.

استفسرت من الفتيات عن وجهتي في ذلك المكان الذي لا يقصده غالبًا غير الصيَّادين!

قلت لهنَّ إنِّي أريد التقاط صورٍ لمنزل هيلا. فالمكان لم يزل يحمل اسمها على الرَّغم من أنَّه مهجورٌ تمامًا. حذَّرنني من الاقتراب، فالمكان يعجُّ بالأفاعي، إضافةً إلى أنَّه مسكون.

مسكون؟! طبعًا، لم يدهشني الصيت الذائع عن منزل هيلا، لكنْ كلمة «مسكون» لامستني بيديْن غريبتيْن.

استوقفتني الملاحظة واستفسرت أكثر عن حقيقة أنَّ المكان «مسكون»! أكَّدت لي الفتيات الصغيرات أنَّ ثمَّة أشباحًا تجوب المكان ليلًا ونهارًا، ولا أحد يجرؤ على الاقتراب.

قطعتُ وعدًا للفتيات الفائضات بالحياة والطفولة وصدقها أنَّني لن أقترب كثيرًا، إنَّما أريد فقط أن ألتقط الصور، وأبرزت لهنَّ الكاميرا المعلَّقة بعنقي تأكيدًا لهنَّ على ذلك.

هبَّت ريح المساء الصيفيَّة، وحرَّكت ذؤابات الأشجار المتكاتفة حول القبَّتيْن الطينيَّتيْن. بالكاد لمحتهما بسبب التفاف

الدفلى الوحشيّ حول خاصرة المكان.

غمرني ارتياحٌ غريب. تتقبَّل الطبيعة صمتنا، وابتسامتنا، تفاؤلنا، حيادنا، لامبالاتنا، مزاجنا، اختلافنا. بدت الريح وكأنَّها طيْف هيلا بالذات، تريد أن تقول شيئًا.

كانت أُمِّي مغرمةً بالريح. تقول إنَّ الريح تُفكِّر وتعتقد وتؤمن وتحبّ وتكره.

تنطق أُمِّي بكلماتٍ مُحدَّدة كلَّما عصفت الريح لأنَّها تحمل الصوت وتوصله: «يمكننا أن نروي قصَّتنا للريح فتوصلها إلى أحدهم..».

إنَّ البشر رواة قصص. لماذا؟ لأنَّهم يريدون تغيير عوالمهم، يتمرَّدون، يثورون، عبر الكلمات. تغيير الحياة عبر القصص أقلّ كلفةٍ من تغييرها بلحظة وعيٍ ورفضٍ حقيقيَّيْن، نحاول بهما تغيير عالمنا، العالم الذي قد نولد فيه لكن لا نحبّه. إذن الفانتازيا هي الحلّ، والسحر أحد أمضى الحلول.

عثرتُ على بقايا مصطبةٍ إسمنتيَّة تحت شجرة تين تنحني على مجرى المياه.

داهمني النعاس، بعد قيادة السيَّارة لأكثر من خمس ساعاتٍ متواصلة. تحسَّست الحجاب المثبَّت أعلى ذراعي، كان هذه المرَّة حرف الصاد وقد كُتِب أربع عشرة مرَّة على حجابٍ من رقٍّ ظبيٍ في يوم الجمعة، تثق خاتون بقدرة هذا الحرف الناطق البارد اليابس الذي يحمل طباع التراب القويَّة والمستقرَّة. غفوت تحت سطوة خدَم حرف الصاد ونمت. كانت نجمةٌ بعيْنها قد أيقظتني.

للنجوم أذرعٌ وأنامل لا تلامسنا إلَّا في الخلوات النائية. طلعت نجمة الشعرى اليمانيَّة في برج السرطان. وهذا البرج صاحبه القمر بذاته، وله من البلدان القدس وبغداد وشرقي خراسان وحلوان وأذربيجان وآمد وتونس. ستكون الريح هذه السنة شرقيَّة، ولا تزال كذلك حتى تخرج الشمس من البرج الذي هي فيه، وأكثر رياح السنة من ناحية الشمال، وتكون قرون القمر مرتفعةً والسماء متسحِّبة. ستأتي مياه الفرات مشوبةً بالأحمر. سيفسد العنب والتين، ويقع بين العظماء خلاف، ويتحرَّك الملك من موضعه إلى موضعٍ آخر. ومن كان أوَّل اسمه «واو أو صاد» يمرض ويُخشى عليه.

أشعر بخدَّام الكلمات وأعوانها، حالما نطقت بالكلمات اللازمة حيث تتراصف أحرف القمر الباردة والرطبة، وهي الذال والضاد والظاء والغين.. تحرَّك جذع دفلى يُطلُّ مباشرةً على مياه الربيع المتدفِّقة في شقٍّ غير عميق لكنَّه مجرى حُفِر على مدى سنواتٍ طويلة.

تراءى طيفها. كما كلّ صابئيّ، تحبّ أرواحهم المياه ولا يمكن مفارقتها.

«أرسلتك أُمّك!؟ محظوظاتٌ الفتيات اللواتي يحظين بأمٍّ ساحرة».

لربَّما كانت هيئة هيلا الصبِّيَّة هي الأكثر تواضعًا وعاديَّةً بين الأطياف التي قابلتها! ملامح متواضعة وهادئة. لا جمال واضح، لكنْ ثمَّة نعيمٌ ساكنٌ في تلك الملامح اللطيفة والجسد الصغير.

«يبدو أنَّ خاتون قد ربَّتكِ جيِّدًا؟»

«كيف تراءى لهيلا الصُّبيَّة ذلك؟!»

«أعرفهم أولئك الذين ينهضون صباحًا ليكونوا وردةً عبقة». تحرَّكت غصينات الدفلى كما لو أنَّها تتواطأ مع كلام هيلا التي تابعت حديثها:

«أعرفهم الذين تلقُّوا تأهيلًا أصيلًا للروح. يمكنك إتقان نقلات الروح، بيسر».

تلقَّنتُ من أُمِّي حقيقة أنَّ كلّ روحٍ تتقن رسم خطَّتها السرِّيَّة بفضل الانفتاح والإلهام، وتقديس الوقت. وخطط الأرواح تُرسم بأداةٍ واحدة: «التغيير».

تكلَّمت هيلا وكأنَّها قرأت أفكاري:

«في الحياة هنالك الشجعان والأذكياء والأقوياء، وهؤلاء يسعون لتغيير ما حولهم، وهنالك الحكماء وهم يغيِّرون أنفسهم، ذلك واضحٌ في سيمائك. هنالك شيءٌ تجهلينه وغامضٌ في أعماقك تريدين تغييره وتجهدين بذلك، لكنْ دون «الانتباه» لا نتبصَّر في ما يوجد في داخلنا، لهذا أرسلتكِ خاتون.

بدا لي صدق هيلا ونقاؤها جليَّيْن على نحوٍ لا يُصدَّق، إنَّها إنسانٌ متكاملٌ لا يمكن لقاء سيِّدةٍ بصفائها. صوتها ونبرته يخرج من عمقٍ خفيٍّ اكتشفته بنفسها.

إذن، اكتشفت ما ينقصني من نبرة صوتي؟!

لم تمهلني هيلا كثيرًا لأناور أفكاري، راحت تحكي لي أشياءَ لن أنساها ما حييت عن الروح!

«للروح رحلتان: هبوطها من عالم النور إلى الجسد، ثم رحلة صعودها إلى الأعالي.

في السماء، تطلب الروح سلاحًا حتى لا تعمى ولا تُصمّ ولا تخرس، أتعلمين ما يكون هذا السلام؟!»

«المعرفة! تطلب الروح المعرفة لتكون دليلها. تكتسب الروح في طريقها خلال رحلة الهبوط الكثير من صفات العالم الملموس، حيث الأشياء تُلمس وتُمسك وتُقتنى، فيخفت بريق الروح وينوس ضوؤها كلَّما اقتربت من الأرض».

علمتُ جيِّدًا أنَّ ما ترويه هيلا عن رحلة الروح هو من الديانة الصابئيَّة، وهي أقدم الديانات في الشرق القديم. سمعتها بإنصاتٍ وهي تتحدَّث عن رحلة الروح الشيِّقة:

«تدلف الروح لجسد الجنين في الشهر الخامس وهو في بطن أُمِّه».

صمتت قليلًا وتابعت شيئًا خفيًّا على ضفَّةٍ لا أراها: «لا أعرف ما الذي يفعله البشر بأنفسهم وهم يضعون مواليدهم في أمكنةٍ اسمها «المستشفى»؟ أتعلمين مقدار النقاء والسكون الذي تحتاجه الروح الخارجة للتوِّ من بطن الأُمّ؟ الدماغ يا عزيزتي يكون طازجًا وليِّنًا ونظيفًا، علينا أن نحافظ عليه كذلك خلال الأيَّام الأولى من الولادة. ونحذِّر كثيرًا لدى موت أحدٍ في الجوار على بعد عدَّة كيلومترات، لأنَّ الروح الخارجة من الجسد عقب حياةٍ طويلة كانت أم قصيرة، فإنَّها تكون محمَّلةً بالماضي والصور والذكريات، وثمَّة نتفٌ من كلِّ ذلك سيلتقطها العقل

الوليد الذي سيتلوَّث بذكريات روح أخرى ـ لأجل المصادفة مرَّت قريبًا منه، وستفسد عليه مباهج الحياة برمَّتها! لعلَّك فهمت لماذا غدا معظم سكَّان الأرض حزانى كئيبين يلتهمون الحبوب المنوِّمة، على أمل أن تنسيهم صورًا ليست من حياتهم بالذات لكنَّهم لا يعون هذه الحقيقة».

أذهلتني هيلا بآرائها، التي رأيت فيها الكثير من الجدِّيَّة! حقًّا من يولد في مستشفى يكون محاطًا بالمرضى وبالذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة، مهدّدًا بالتقاط صورٍ مؤلمة تحملها الأرواح المغادرة! هذا عدا عن الأرواح الغاضبة التي تجوب المكان حزنًا على الأجساد المسجَّاة في ثلَّاجات أقبية المستشفيات. من يولد في مستشفى يَفسد في الحال. تفسد روحه ويتلوَّث دماغه بصُوَرٍ ليست له! وهذا يفسِّر عدد مرضى التوحُّد مثلًا، لربَّما تكون وجهة نظرٍ وحسب! بلبلتني هيلا بحقّ.

عندما كنتُ صغيرةً، كنت أتشارك خبز «البهث» مع صديقتي الصابئيَّة فريدة في المدرسة. كانت تُهرِّب لي تلك الأرغفة الصغيرة من الخبز المخبوز من خليط دقيق القمح والشعير والذرة بمقاديرَ دقيقةٍ للغاية تؤكل في طقوس التعميد.

معها حقّ هيلا. أُفكِّر.. نعم. البدايات لا تقول شيئًا، الحقيقة تكمن في النهايات.

يولد البشر الآن قلقين من بطون أُمَّهاتهم. يمضون حيواتهم وهم يمشون بخطًى مربكة، يتكلَّمون بصوتٍ عالٍ. ضجيجٌ يتحرَّك، يتجوَّل على قدميْن، إنَّه ليس إلَّا انعكاسًا لواقع الضجيج

الذي يسكنهم. ضوضاءٌ مكدَّسة تتسرَّب عبر ردَّات فعلهم الفوضويَّة وتصرُّفاتهم المفتعلة. ارتباكٌ يحدث مع الصرخة الأولى في الحياة.

كيف لصوتٍ عظيمٍ أن يُنبِّهَ البشر إلى حساسيَّة الروح الوليدة ودقَّة الدماغ الطازج؟!

كيف نحمي الدماغ والروح من حماقات البشر وهم يلدون أبناءهم في أمكنةٍ مزدحمةٍ بالموت والحزن والبكاء والنحيب كالمستشفيات؟

فكَّرتُ أنَّ ما تقوله هيلا لربَّما كان حقًّا أحدَ أسرار كثرة مرض التوحُّد في العالم!

النضج علامته السكون. لهذا تعلَّمتُ كيف أتجنَّب الصاخبين الذين يصفقون الأبواب، يستميتون لأجل لفت الأنظار والانتباه، تُسمِّيهم أُمِّي «البراميل الفارغة». هؤلاء وُلدوا وعاشوا طفولتهم في ظروفٍ غير سليمة. الروح هي كلّ شيء، وإن لم يفهم العالم هذا سيفنى بسبب الحزن وحده.

أخذتني دوَّامة الأفكار والأسئلة بينما سألتني هيلا ـ المرأة الواضحة والشفَّافة، فينفتح الآخر أمامها بارتياحٍ ودون أقنعة:

«هل ستكونين مثل أُمّك؟!»

هيلا امرأةٌ نقيَّةٌ بحقٍّ، فضوليَّة. هذا السؤال بالضبط لا أريد أن أُجيب عنه الآن. أجبتها على نحوٍ غير مباشر، وربَّما بدا مراوغةً منِّي في غير مكانها:

«درست الفلسفة في دمشق..» صمتت.

أكبر درس حرصتْ خاتون المغوليَّة على تلقيني إيَّاه هو «الصمت». إنَّه فنٌّ ودربٌ وعالمٌ وجغرافية، أرضٌ لا ينتزعنا منها أحد. بفضل الصمت، تعلَّمت أنْ أُراقب وأنتبه، وأختار الطريقة التي أُقدِّم بها نفسي: كلامي، ثيابي، رائحتي، وكلّ تلك الأشياء التي تشي بمزاجي وطبعي.

لو تعلمون كم تلقَّيت تمارينَ على الصمت! كانت تطلب منِّي أن أصوم ليوميْن عن الكلام في كلِّ أسبوع. كبرت وعلمت أنَّ الثرثارين وكلّ الذين يتكلَّمون كثيرًا يفعلون ذلك لإخفاء أشياءَ يخافون من أن يلتقطها من حولهم.

لا بدَّ من أنَّ هيلا تعلمُ كذلك أنَّ الصوت العالي تمويهٌ لما يخفيه البشر. الضجيج هو تستُّرٌ على إعصارٍ داخليّ. الضجيج هو ألم. يغدو بعض البشر مثل الأبواب والنوافذ الصدئة التي تُصدر الصرير كيفما تحرَّكت. لا ينتبه هؤلاء أنَّ ألمهم الباطنيّ يُصدر الصرير من خلال انتقائهم لكلماتٍ جارحة ومحبطة فيها الكثير من الضغينة.

تلتقي هيلا مع أُمِّي في نقاطٍ كثيرة. كلَّما هدأت وحوش الداخل بدأ السلام العظيم.

«إيَّاكِ والإلحاح. تتحقَّق الأحلام إذا ما نسيناها.. سرعان ما تسبح قريبًا منَّا طافيةً مثل بجعةٍ مطمئنَّة».

تلاشى طيف هيلا وتركني وحدي مع الخلاء الذي أحبّ.. هدوء الفيافي حيث لا أشجار ولا تضاريس واضحة. إنَّها السكون بعينه صفاءً ونقاءً. هنا النقاء الأعمق.

6

شبح ملكة الباغوز
حكاية الغيرة بين ملكتيْن

تضاريس غريبة: كهوفٌ، تلالٌ، ومجرى ضيِّقٍ لنهر الفرات، قرب بلدة البوكمال. تنتشر تلالٌ تحوي جبَّانات ومدافن برجيَّة مهندسة على الطريقة التدمريَّة، نُبش معظمها وخُرِّب. مناظر طبيعيَّة خلَّابة. كلّ شيءٍ مهجورٌ ومنسيٌّ وتسكنه الوحشة، وثمَّة شبحٌ يطوف في الظلمات. يزعم الأهالي أنَّ الشبح يأوي إلى الكهف الذي يسمُّونه بـ كهف «التيس»، لأنَّ تيسًا أسود دخل الكهف وخرج منه على بعد عدَّة كيلومترات في الأراضي العراقيَّة، بشعرٍ أبيض! أحاديث كثيرة عن شبح الملكة دورين، وعن التنِّين الضخم الذي يلتهم كلّ من قد يغامر بدخول تلك الكهوف.

ثمَّة وثائق تاريخيَّة تؤكِّد أنَّ ملكة الباغوز قد شقَّت مجرى من

ماء الفرات. أمرٌ لا يغفله التاريخ المكتوب. لماذا فعلت ذلك؟ السبب نسائيٌّ انتقاميٌّ بحت.

اسمعوا هذه الحكاية الغريبة:

شقَّت الملكة دورين مجرى جديدًا لها من نهر الفرات، كي تتجنَّب الاغتسال أو الشرب من المياه المتَّجهة نحو مملكتها «الباغوز» من مملكة «ماري». دفعت طفرةٌ رهيبة من الحقد والغيرة الملكةَ دورين إلى حفر نهرٍ لا ضرورة له غير كبريائها كأنثى هزمتها أنثى أخرى!

قبل أن أحدِّثكم عن لقائي بطيْف دورين، لا بدَّ من أنْ أروي قصَّةً أراها شائقةً عن غيرة امرأة!

الغيرة والحبّ من طرفٍ واحد.

عن الملكة «الحوريَّة» التي تصنع فطائرَ باللوز للملك

الملكة الأخرى اسمها «شبيتو». وُلدت من حصان البحر. قيل إنَّ أُمَّها وقعت في غرام مخلوقٍ بحريٍّ غريبٍ لا يطأ اليابسة إلَّا في الليالي غير المقمرة. اعتاد ساسة خيل الملك أخذ أفضل الأفراس وتركها قرب الشاطئ، ثم يتوارون عن الأنظار، فيخرج فرس البحر ويعتلي الأنثى. وحتى لا يُسمع صهيله ترغو الأمواج وتزبد وتلطم حصى الشطآن، وحالما يترك الأنثى يعود للبحر. ومن سلالة هذا الحصان وُلدت أفراس الشام.

تولد سلالات فاتنة الجمال من تلك المزاوجات، لكنَّ الملكة أرادت أن تضاجع الحصان البحريّ. من قرأ التاريخ يعلم تمامًا أنَّ هنالك ملكاتٍ ضاجعن الخيول والثيران أيضًا، ولربَّما

سمع بعضكم بقصَّة ملكة كريت «باسفاي» التي ضاجعت ثورًا وأنجبت وحشًا اسمه المينيتور. لكنْ هنا في أرضٍ سورية وعلى ضفاف الفرات، ضاجعت الملكة فرسًا بحريًّا خرافيًّا وأنجبت ابنةً غاية في الحسن والذكاء.

بفضل تعاويذَ سحريَّةٍ تتقنها الملكة الشبقة منحتها لها هيئة الفرس، استطاعت مضاجعة الحصان البحريّ الذي يكنس ذيله الأسود التراب، ولا يترك وراءه سوى أثر حافره المشقوق كالبقر الوحشيّ. وُلدت الملكة «شبيتو» من نسل هذا الكائن الخرافيّ، والتي ستغدو ملكةً على أشهر ممالك سورية القديمة ـ مملكة «ماري».

تقطع قصص الحبّ رحلتها وتعبر الزمن، هكذا وصلتنا قصَّةٌ تنافست فيها ملكتان على قلب رجلٍ واحد. أخذ الحظّ جانب «شبيتو» وحكمت مملكة ماري.

ازدهرت هذه المملكة في الألف الثالث قبل الميلاد. ظلَّت خرائبها المستديرة على ضفَّة الفرات في شرقي سورية شاهدةً على العزِّ والثراء اللذين غمرا مملكة ماري التي ذاع صيتها في زمن الملك «زمري ليم» والملكة الحلبيَّة «شبيتو». هل وُلدت الملكة الحلبيَّة حقًّا من حصانٍ بحريّ؟ ما يهمّ في القصَّة أنَّ «شبيتو» أسرت قلب الملك «زمري ليم».

اشتهرت مملكة ماري بهندستها المستديرة، فقد كانت الدولة كاملةً ضمن دائرةٍ مفتوحةٍ من جهةٍ واحدة على الفرات. ومن المعلوم أنَّ المدن المستديرة اشتهرت بها القارَّة الغارقة «أتلانتس»!

ازدهرت ماري إلى حدٍّ الرفاه. كانت تصنِّع أشهر عشرة أنواع من العطور عرفها العالم القديم، وتنتج سنويًّا ما يزيد على ستمئة ليتر من العطر في كلّ شهر.

على الرَّغم من أنَّ ذاكرة التاريخ متواطئةٌ مع الرجال وتحفظ أسماءهم وتنسى النساء، لكنَّ الزمن لم يستطع تغييب صيت الأميرة الحلبيَّة «شبيتو» التي زُفَّت إلى ملك ماري «زمري ليم» لتكون الزوجة الثالثة وتحتلّ فؤاده وتتسيَّده بشكلٍ مطلق، بسبب العشق الذي عصف بينهما والذكاء الفريد الذي اشتهرت به «شبيتو» التي غيَّرت كثيرًا من عادات القصر، وكانت أمًّا لبعضٍ من بناته الثلاث عشرة، اللاتي زوَّجتهنَّ إلى ملوك وأمراء الممالك المجاورة.

لم تبخل علينا وثائق مملكة ماري بتفاصيل الحياة اليوميَّة للملكة «شبيتو».

لا يكفي الجمال وحده. يكمن السرّ في الفتنة. بلغ من سحر «شبيتو» وافتتان الملك بها حدًّا أنَّ «قصَّة حبّهما» دُوِّنت في التاريخ الرسميّ لمملكة ماري.

امرأةٌ ذكيَّة أزاحت كلّ نساء البلاط وكسبت قلب الملك «زمري ليم».

استثمرت «شبيتو» حبّ الملوك لكلِّ ما هو فريد ونادر. أضافت لمستها لكلِّ شيءٍ حوله: الأكل الذي يتناوله، والعطر الذي يتعطَّر به، والثياب التي يرتديها، والمراسلات التي تجيد كتابتها له عندما يغادر بلاطه. جمعت حوله أفضل المتنبِّئين

والكهنة. تشاركه قراءة بريده في كلّ مساء وتصنع له الفطائر المحشوَّة باللوز.

أكثر المستحيلات شهرةً هي استحالة إطفاء نار غيرة امرأةٍ من أخرى.

جنَّن صيت «شبيتو» غريمتها الملكة دورين التي كان يفترض أن تكون عروسًا لزمري ليم، لكنَّ «شبيتو» استحوذت على قلبه، ولم يتزوَّج امرأةً بعدها.

تبطل المسافة بين كبرياء المرأة وغيرتها، ويغدو كلّ ما تفعله حماقةً إثر أخرى. وكان النهر الذي أمرت دورين ملكة الباغوز بحفره أشهر علامةٍ على حَنَق امرأةٍ أعمتها الغيرة. لم يحتمل جسد الملكة الغيورة الاستحمام بماءٍ قد تكون قطرةٌ منه لامست جسد ملكة ماري المدلَّلة بحبِّ زوجها.

لا أصعب من الحبّ عندما يغدو هو الجرح والسكِّين! خابت آمال ملكة الباغوز. جفَّ النهر الذي لم يكن له سببٌ غير الغيرة، فقد شرعيَّة وجوده، وعاد الفرات إلى مجراه الحقيقيّ، تاركًا الملكة دورين شبحًا حانقًا ومخذولًا.

يحرس شبحها مجرى النهر الجافّ. فاتها أنَّ كلّ شيءٍ يجري، لا شيء ثابت. لم تسمع فيلسوف الإغريق هيرقليطس وهو يؤكِّد أنَّ استحمام الشخص ذاته في النهر ذاته يختلف في كلِّ مرَّة. لم تحسن التحالف مع الماء الزائغ والمارق والمتبدِّل إلى حدِّ أنَّه يتلاشى من مكانٍ ليظهر في مكانٍ آخر، هكذا جفَّ نهر دورين الذي تذكره كتب التاريخ دون أن تتوقَّف عند تفاصيل «غيرة

امرأة». لم تحظَ بنعمة تذوُّق الحياة بعيدًا عن مأزق «الغيرة»، المأزق الذي يطيح بذكاء المرأة الفطريّ.

لا ذكاء مع الغيرة.

ما أحلى وما أذكى الملكة «شبيتو» وما أحزن الملكة دورين! امرأةٌ سجَّلت حضورها بذكائها ودهائها وسعة حيلتها لتتربَّع على عرش قلب ملك، والأخرى لن يتذكَّرها التاريخ دون حماقة غيرتها.

نعم، لم يتغيَّر شيء: الحياة هي الحياة، والنساء هنَّ النساء حتى لو كنَّ ملكات!! والغيرة أبشع ما يمكن أن يطيح بأنثى، لا أنوثة مع الضعف والهشاشة وتقليد شخصٍ آخر. المرأة الواثقة من نفسها تبلغ بقفزةٍ واحدة ما تبلغه امرأةٌ أخرى مزعزعة الثقة بألف خطوة.

كان عليَّ أن أنفِّذ شرط أُمِّي وأقصد المغارة الخرافيَّة التي قيل إنَّها تؤوي شبح دورين الغيورة.

تذرَّعت كالعادة بإجراء تحقيقٍ صحفيّ لأُقابل البعثة الأجنبيَّة التي تعمل في المكان، وأضمن المبيت قريبًا من كهف الباغوز.

كتبتُ تميمتي بنفسي. كان عليَّ كتابة حرف الجيم على قطعةٍ من خبز الشعير وعلى أظافر يدي اليسرى: السبَّابة والوسطى والبنصر. كانت خاتون تنقش هذا الحرف الشريف الناطق النورانيّ على جذوع الأشجار التي انقطع نموّها. هذا الحرف المثلَّث له مراتب الحرارة والرطوبة، ورطوبته مائلة إلى الحرارة، له من الأيَّام الثلاثاء وكوكبه المرِّيخ.

كانت السماء شديدة الحُمرة. طلعت الشعرى اليمانيَّة والقمر في برج الأسد. هذا الكوكب الناريّ الطباع تحكمه الشمس بكلِّ جبروتها الضوئيّ وطغيانها المتوهِّج، وله من البلاد الترك إلى نهاية العمران ونيسابور وأصفهان وصيدا ورأس العين والرها وعسقلان.

ستخرج هذا العام ريح قبول، وهي جنوب إلى رأس القلب أو أنَّها تكون دبورًا بين الجنوب والشمال، وتهبّ ريحٌ من الغرب عظيمة. ستكون أضواء الكواكب حمراء، ويحسن ضوء القمر، ويغلو القمح والشعير والزيت والشراب بأرض الشام، سيحمل النخيل وتكثر الألبان والثمار، ويهلك رئيسٌ وكلّ من معه يموت بالحديد، سيكثر السعال وإسقاط الحبالى. وسيكون حرّ الصيف شديدًا، ويقلّ العسل والتمر والسمك، وكلّ من أوَّل اسمه «هاء أو زاي».

أشعلتُ ناري ونفخت على بخُّوري وارتفع الدخان، وفاحت رائحة المستكى واللبان.

وبخشوعٍ ذكرتُ أسماء سلاطين الخفاء الذين يتحرَّكون أسرع من جري الخيل. وسرعان ما انداح حولي الدخان مملوءًا بأطياف الغموض، بينما أُكرِّر تعاويذَ تحتفي بأحرف الشمس: «الميم والنون والسين والعين». تحت تأثُّرات الحياة النجميَّة في الأعلى التي تُلقي هنا وهناك وميضًا رشيقًا عائمًا، للحظة فكَّرت أنَّ ما يهيِّج الأطياف هو جاذبيَّةٌ تخرج من عقلي، أو ألفةٌ سرِّيَّة مع خيالاتي، ثم عكفتُ على الثقة بذوق الأحرف الصارم..

تراءى لي خليطٌ دخَّانيٌّ مدهش، بدا أنَّ الالتئام بهيئةٍ متجانسة عسيرٌ عليه.

سمعتُ صوت الطَّيْف قبل أن يكسو نفسه بهيئةٍ ثابتة:

«حفرتُ النهر لتعثر مشاعر الغيرة على مسربٍ لها لتخرج من رأسي ومن جسدي».

بأيَّة حنكةٍ لفَّقت لي أحرف التعاويذ هذا الطيف الأنثويّ لامرأةٍ هيفاء القامة نحيلة القدّ. لم تخفَ عليَّ أبَّهة حضورها الدخَّانيِّ، تابعت كلامها وهي تقول:

«يا ابنة خاتون، اسمعي: لا تؤلمنا أفكارنا، إنَّما مشاعرنا التي هي ظلالٌ لأفكارنا وهواجسنا. لم أكن أريد قمع مشاعري وكبتُّها لأنَّها كانت ستقتلني. أتعلمين أنِّي عشت طويلًا وحكمت مملكتي بعدل!؟ أردتُ أن أعيش دون صداعٍ في الرأس. لم يحمني التاج من الحزن والغيرة، أو من ألمٍ في المفاصل أو عسرٍ في الهضم. نعم، حفرتُ النهر! لأُشفى. لا نعثر على المخرج السرِّيّ لما يؤلمنا إلَّا بشيءٍ من التوحُّش. ترسَّب الحزن بين أضلاعي وكاد أن يقتلني. نبت من البغض عشبٌ سامٌّ راح يتسلَّق أحشائي. إنَّه شعورٌ مثل جبلٍ أو صخرةٍ لا يمكن الهروب منه أو تجاهله.

حفرتُ لمشاعري السوداء مجرى، وتركتها تتدفَّق. سمحت لها بالمغادرة، بالخفقان بالحياة على طريقتها. تركتها ترحل إلى أرضٍ أخرى، راقبتها. لم تعد تخصّني، هي شيءٌ منفصلٌ عنِّي.. رحلت المياه، وشُفيت».

كعادة أطياف أُمِّي، دخل الطَّيْف في صلب قصَّته. تكلَّمتْ دورين وبرَّرت نفسها على نحوٍ ما، بينما أصابني الخرس. تابعت تقول:

«لم أكن أريد التجوُّل في مملكتي وجروحي مرئيَّة. مصيبةٌ حقيقيَّة أن تتحرَّك بجرحٍ واضح، ذلك أمرٌ يُحرِّك شهوة براثن الآخرين المتربِّصين».

يتَّفق ما يقوله الطَّيْف مع ما كانت تُردِّده أُمِّي دائمًا. سبب الأمراض هو العزف الخاطئ على نوتات المشاعر وانعكاس ذلك على الجسد. لا بدَّ من الغراميَّات التي يتبادلها القلب مع الكبد والمرارة والطحال والقولون، إنْ لم يحكمها التناغم تمرض وتؤلمنا. الألم هو تنبيه!

قلتُ أخيرًا: «إذن شُفيتِ بسبب حفر النهر! وليس بسبب حجرة العقيق التي أُخرجت من دماغ تنِّينٍ كما تقول الخرافات عنك؟!»

«كلّ من يريد أن يحكم العالم يكون بخُوره «الشائعات». هل تصدِّقين حقًّا أنَّ هنالك ملوكًا تغذُّوا على لحم التنِّين؟ أو أنَّ ملكةً وُلدت من نسل حصانٍ بحريّ!؟ يستمرّ حكم الملوك الأذكياء بفضل الأفكار، وليس الجيوش. ذكاء الحكَّام يكون بالسلطة على ما لا يُقفل عليه بالمفتاح. ثم حفر نهر! حماقةٌ ناعمة أمام تخريب مدينةٍ وحرقها كما يفعل الملوك. حكمت دون أن أتخلَّى عن البقاء امرأة، فوقعت بغرام رجلٍ اختار امرأةً غيري. حفرتُ النهر ليقيني أنَّ المشاعر السامَّة يجب أن تُراقب، وتُراعى وتُدارى

كوحشٍ برِّيٍّ نُخلي أمامه الطريق ليذهب بسلامٍ ويتركنا بسلام..».

تفتَّت ذرَّات طيف ملكة الباغوز، وألفيت نفسي وحيدةً بين التلول الترابيَّة القزمة التي تغطِّي أوابد مملكةٍ كانت ذات يوم. فكَّرتُ بشيءٍ واحد كانت قد ردَّدته خاتون دائمًا: «في قصَّة الحبِّ من طرفٍ واحد، ننتهي كالطرائد القتيلة بعد رحلة صيد».

تنشَّقتُ هواء الصحارى الممتدَّة حولي من كلِّ الجهات. ما تفعله الصحارى هو ذاته ما تحذوه الغابات والسهول والأنهار والبحار والجبال: ارتياح، تمدُّد تغلغل، باختصار ذكاء التوسُّع! العالم هو ذكاء التحوُّل والتغيّر، تُخرج الأرض مشاعرها على طريقة ملكة الباغوز. لولا البراكين لكان هذا العالم عديم الملامح لا شكل له.

7

قلعة النجم المحروسة بالجنِّيَّة «زَغْل»
الجنس هو اللذَّة، والحبّ هو ألم اللذَّة

يُذهلني سموُّ القلاع اللاذع. نجح البشر بتحويل تمرُّدهم إلى هندسة عندما بنوا أوَّل قلعة. أيَّة عاطفةٍ ثوريَّة جعلت البشر يبنون كلّ تلك القلاع!؟

ينبغي للبناء أن يكون متحيِّزًا ومتحمِّسًا لوجهة نظر بانيه. إذن، في القصَّة استعلاءٌ حقيقيّ. ولهذا شُيِّدت الحصون والقلاع والأبراج.

بدت «قلعة النجم» كنسرٍ مغلولٍ إلى صخرة وهي ترسل الأبراج الدفاعيَّة للقلعة كأجنحةٍ ممدودةٍ للأعلى، تريد أن تخفق وتُحلِّق بينما جذعها المرصوص على ضفَّة الفرات ينغرس بمخالبَ صخريَّةٍ متينةٍ وراسخة.

قالوا عن الجنِّيَّة «زغل» إنَّها رائعة الجمال، على رأسها قرونٌ لها أجنحة ولساقيْها مخالب نسرٍ سريعةٌ بالتنقُّل وتحلِّق طائرةً بين برجٍ وآخر كما لو أنَّها تمشي.

فكَّرت أنَّها تلك الربَّة الخرافيَّة التي تذكرها كتب التاريخ: (تأكل جسدك دونما سكِّين، وتشرب دمك دون كأس).

قلعة النجم: عمَّرها العرب، وملكها بنو حمدان ثم بنو مرداس وبعدهم بنو نمير، إلى أن خرَّبها التتار وضربها الزلزال، ثم دكَّتها مدافع العثمانيِّين لتتحوَّل بعدها إلى خرابٍ دائم شامخ يشرف على الفرات من جهة الشرق. مُحاطة بمساحاتٍ شاسعةٍ خالية، لتغدو القلعة مَعْلمًا نافرًا وشاهقًا وسط تلك الفيافي.

لكنَّ هذه القلعة تحت حكم امرأةٍ خفيَّةٍ متخفِّية لم يستطع أحد إزاحتها. تلك الأنثى الغامضة المدعوَّة «زغل» المتشهِّية، المهووسة بالرجال، تتعشَّق أوسمهم وأشجعهم، لها شهوةٌ تفتك بأقوى الفرسان.

تربض هذه القلعة الشاهقة شمالي مدينة منبج على ضفَّة نهر الفرات اليمنى. تُعَدّ أحد مداخل بلاد الشام الشماليَّة، تعبر من جسرها الشهير قوافل التجارة من الرها وحرَّان إلى الشام.

ثمَّة وادٍ مهيب يتقدَّم بوَّابتها اسمه وادي القيعق، ويليه الخندق العميق الذي يحيط بها من كلّ الجهات.

ثمَّة منفذٌ عبر الجدار الجنوبيّ الأيسر يُشكِّل مدخل القلعة. من يعبره تنفرج أمامه الدهاليز والممرَّات المعتمة المؤدِّية إلى أبهاء

سقوفها المعقودة، ومن يدخلها عليه أن يفعل ذلك من جهة الجامع فإنَّه آمنٌ من أذى «زغل».

لم تزل تلك البرودة الغريبة التي يشعر بها الزائر لدهاليز القلعة تُذكِّر بالقصَّة المثيرة التي تنقلها الخرافات المحكيَّة.

تقول الحكاية إنَّ قومًا من الجنِّ اعتادوا اللقاء في قاعات القلعة الفسيحة والباردة في أوقاتٍ مُحدَّدةٍ من السنة. يحدث ذلك اللقاء غالبًا في السابع والعشرين من شهر كانون الأوَّل، حيث يتسلَّط الجنّ على الأرض في هذا التاريخ، ويتحكَّمون في المياه فيُغرقون السفن ويقلبون المراكب، ويتجنَّب الناس شرب الماء قبل النوم في تلك الليلة. لا أحد يعرف لمَ يتذكَّر الجانّ في هذه الليلة بالذات حقيقة أنَّهم حكموا الأرض ذات يوم وسادوا!

لا يمكن تجاهل موقع القلعة الفريد: يُشرف من جهةٍ على الصحراء ومن جهةٍ أخرى على الفرات العظيم، الأمر الذي جعلها مقصدًا سنويًّا لقوم الجنّ أولئك.

ثمَّة حفلةٌ سرِّيَّة ماجنة تحدث كلّ سنة. يصلون بخفَّةٍ لا مثيل لها، ويجتمعون في قاعةٍ سفليَّةٍ باردة ومعتمة. يتعرُّون من ملابسهم إلَّا وجوههم فإنَّها تبقى مغطَّاةً بأقنعة. حفلة مجونٍ ولعبٌ وقصفٌ وجنس. تتناهى إلى آذان الصحراء أصوات النساء المحمومة وزمجرات النشوة التي يُطلقها الذكور في نشوةٍ جماعيَّةٍ موحَّدة..

خلعت «زغل» القناع ووقعت في غرام الآدميّ.

إحدى الإناث وقعت في خطأٍ لا يغفره لها قومها، لكنَّ الفخّ تجسَّد في ذلك الرجل الإنسيّ الفارس القويّ الوسيم الذي كان قد

تسلَّل إلى الأنحاء السفليَّة من القلعة ليختبئ من العاصفة الرعديَّة والمطريَّة المجنونة في الخارج.

لمحته إحدى العاريات المقنَّعات. تسلَّلت من حفلة صحبها ووقعت في المحظور. كان الرجل قد استيقظ فجأةً من نومه وعلم أنَّ القدر ضرب له موعدًا مع قوم لا يقابلهم كلّ البشر. استرقَّ النظر والسمع وظلّ قابعًا في مكانٍ معتم. ظلَّ الآدميّ آمنًا إلى أن لمحته «زغل».

سرت ثمالة النشوة تحت جلدها واحتقنت جوارحها، أرادته بقوَّة. رغبت فيه، شدَّتها رائحة جسده المختلفة، أسرها وجهه الوسيم وغرابته.

جنَّت العاصفة في الخارج ولفَّت المكان بحَنَقها، وشقَّ برق الرغبة السماء وانمحت الحدود بين العقل والوعي، لا كلمات ولا قوانين ولا أفكار. صعدت سخونة التشهِّي، وبعنادٍ أنثويٍّ خالصٍ، نزعت «زغل» القناع عن وجهها، وراودت الرجل المندهش من تلك المرأة الحسناء العارية، ورمت نفسها في حضنه واضطجعت تحته ولفَّته بكلِّ جوارحها الناريَّة، متذوِّقةً طعم التراب البارد المحايد الجديد والمحرَّم عليها.

تنبَّه قومها وباتوا غير مرئيِّين، وأحاطوا بها. انتهكت عالمهم ونزواتهم ونزعت القناع. لم يكن ينبغي أن يرى أحدٌ منهم وجه الآخر. شرطٌ لا فكاك منه. علموا من هي. وهذا محرَّمٌ وليس من أصول الحفلة. ورأوها بين أحضان آدميّ!

عُرِفت. فقدت قواها، ولم يعد بإمكانها الطيران على جناح

الريح، أو أن تغور في جوف الأرض. علقت على حدود الأرض، كبَّلها طين البشر وتخلَّى عنها قوم النار.

* * *

عبرتُ محيط القلعة بحذرٍ لأنَّ ثمَّة أرواحًا مقهورةً عالقة، دماءً مختلطة لمن ذاد عن القلعة ومن غزاها. ينشر العسكر فوضاهم بذريعة النظام. وقفت على المدخل المتقدِّم وأشرفت على البادية المترامية الأطراف أمامي. أغمضت عينيَّ، شردت روحي سابحةً في جمال السماء المشعَّة بالنجوم والعتمة المخيِّمة على الآفاق البعيدة.

كنت كلَّما أرهقتني ضوضاء دمشق أزور المتاحف وأسواق الأثاث القديم، أتلمَّسُ الأخشاب القديمة، أشعر باهتزاز ذكرياتها وماضيها. أملأ عينيَّ برونق الثريَّات القديمة، البيانو، الكراسي الهزَّازة. لم يعد أحدٌ لديه الوقت للجلوس على كرسيٍّ هزَّاز وإغماض عينيْه، لهذا معظم أبناء اليوم مكتئبون. ملأتُ شقَّتي بقُطَعٍ من الأثاث القديم. جلبتْ كلّ قطعةٍ ماضيها معها. تعلَّمت كيف أتسلَّح بكلِّ حواسِّي للاستمتاع بالحياة. أتلذَّذ بالصمت وأنا أُعبِّئ عينيَّ بالألوان، أعبّ الروائح وأراقب تبدُّلات الضوء. يمكنني التعرُّف على الآخرين من روائحهم. كذلك ماضي الأثاث القديم، رائحة الخشب تحكي لي قصَّتها، من يُصدِّق؟! لا أحد! لا يهمّ.. يكفي أنِّي أصدِّقُني.

عبَّأت رئتيَّ بهواء الماضي وأنا أقفُ على مشارف قلعة النجم. لكلِّ لحظةٍ نواميسها وقدسيَّتها. كلّ شيءٍ منظَّمٌ وله قواعده كالنحو والهندسة والرياضيَّات. تنشَّقت رائحة الزمان بأنواعه:

الماضي والآن والمستقبل. قرأتُ في جمال السماء وكمالها، وجلال أنواع الديمومة: أزل وآن وأبد. تطلَّعتُ حولي، على الرَّغم من سدول الليل شعرتُ بأنواع العالم: جبروت وملكوت ومُلك.. يا مدبِّر هذا الكون ما أجملك!

طلعت الشعرى والقمر عند طلوعها في برج القوس العزيز على قلب كوكب الشرف العظيم المشتري، ويحكم من البلدان بابل وعمان وهيت نيسابور والجزائر وأصفهان وفرغانة. ستخرج ريحٌ اسمها «القلب» وتكثر رياح الشمال، ويكون لون القمر مثل لون ماء المطر. سيطلع الفرات ويفيض ماؤه ويكون مائلًا للسخونة، ويقلّ نسل الطير وتربح تجارة الكتَّان والزيت والعسل. وينتبه لحياته كلّ من كان أوَّل اسمه «ياء أو حاء أو قاف».

تسلَّحتُ بحرف الفتنة «الفاء». إنَّه حرف التفصيل الصامت البارد اليابس، حرف إلقاء الفتن بين الفرق الباغية. يبوسته زائدة أعلى من حرارته، كتبته يوم الثلاثاء على لوحٍ من حديدٍ والقمر في المحاق، وتحجَّبت بهذا الحرف الذي كان الإسكندر الأكبر يُرسل من يتسلَّل إلى معسكر خصومه ويدفنه في موضعٍ بينهم فتخلو له الديار من غير قتال. كم من الأسرار امتلك الإسكندر ليفتح العالم! الأسرار مفاتيح القوَّة.

نفختُ على بخُّوري وانداح حولي الدخان راقصًا لعوبًا في كلِّ الاتِّجاهات، ونطقتُ تعويذاتي المحشوَّة بأحرف كوكب المشتري البيضاء الباردة: «الهاء والواو والزاي والحاء».

تجمَّعت ذرَّات الطَّيْف ببطء. للحظةٍ، اعتقدتُ أنِّي ارتكبت خطأً ما بنطق الكلمات. تجمَّعت هيئة الطَّيْف، وبدا لي جمالٌ

يُذكِّر بالعواصف الرعديَّة. على الرَّغم من الظلام والدخان، تبيَّنتُ عينيْن لم يمسسهما شيءٌ غير اللامبالاة. ملامح من لا يقلق أو لا يعتذر أو يندم، كلّ ما في هيئتها يُخبرك أنَّه لا جدوى في أن تأخذ العالم على محمل الجدّ. لمحتُ برودة المكر ومسحة لؤمٍ وروحًا مستقلَّة.

«هل حدَّثتك خاتون عن متعة أن تأكل الحاضر بشهيَّةٍ كبيرة قبل أن تمضغنا أضراس الزمن؟!»

فيما كنت أحاول تجنُّب نظراتها المتسلِّلة، بدا واضحًا أنَّها امرأةٌ مختالة، لا حكم لقانونٍ عليها أو عُرف. حاكمة نفسها.

لأوَّل مرَّةٍ أرى طيف أحدٍ من الجانّ. هؤلاء المخلوقون من نار، المتكبِّرون علينا سلفًا، لم يُقرُّوا يومًا بأهمِّيَّة البشر الذين صُنعوا من طين. يُدركون حجم محدوديَّة قوانا أمام قواهم.

على الرَّغم من قلَّة خبرتي بالحياة والحبّ تحديدًا، لكنِّي أعلم أنَّه كلَّما أمعنت بتمرير إحساسٍ للآخر أنَّك محرَّمٌ عليه وغير مشروع كان إغواؤك مستحكمًا قاتلًا وفاتنًا ولا شفاء منه. كلّ عملٍ انتهاكيٍّ يجعلك ترغب بالمزيد. نغذِّي إغواءنا بالصدِّ، بالاختفاء بلعبة الغمَّيْضة. أخذت حكاية «زغل» صيتها بسبب هذا الطراز من الحبِّ.

أرهقتني تلك العيْن التي لا ترمش. تذكَّرت أنِّي سمعت ذات مرَّةٍ أنَّ عيون أبناء الجنِّ لا ترمش! استعلاؤها وتكبُّرها وتشاوفها رهيب. قبل أن أفقد كلّ ثقةٍ بقواي، نطق الطَّيْف بصوتٍ رخيمٍ وعذب:

«نحن كما البشر نحبّ الجمال ونحيا بالعيون».

بدأ الحوار بإقرارٍ لطيفٍ من جانب ابنة النار التي تألَّقت بسحر الشخصيَّة المنيعة. سرّ أولئك الذين لا تعرف متى يتوفَّرون، لذا تتعلَّق بكلِّ نظرةٍ وحركةٍ وإيماءة يمكن أن تبدر عنهم. هذه هي هالة الخطر، هي أن يختفي أو يتلاعب بك من يغويك. لذتُ بصمتي. في الحقيقة، خانني الكلام تمامًا أمام سطوتها، تكلَّمتْ بثقة:

«السحر هو أن نتعلَّم كيف نُفكِّر ونتحدَّث عن الأشياء، ألم تُعلِّمك خاتون أنَّ الحروف نورٌ ساطعٌ وسيفٌ لامعٌ قاطعٌ أقطع من البولاد، ينال منها الخير كلّ من يقصدها؟ ما لكِ تصمتين؟!»

كنتُ مأخوذةً بهذا الطَّيْف اللعوب المتراقص. اعتدت أن أنظرَ، أشمَّ، أتذوَّقَ. كلّ الحياة هي تذوُّقٌ ونكهات، فأسمع بعينيَّ وأرى بأذنيَّ. الحياة مذاقات، يمكننا أن نتذوَّق أصواتًا وألوانًا. للَّون طعمٌ ورائحة، وفضاؤه. لكلِّ شيءٍ فضاء، وراء الفضاء يوجد المزيد من الفضاء، لكنْ من أيِّ فضاءٍ تشكَّل هذا الطَّيْف؟! أنقذتُ نفسي وقلت:

«لولا أنَّ خاتون علَّمتني لما استطعت النطق بالأحرف الصالحة واستطعت أن أحظى بشرف لقائك. بسبب قوَّة الحروف اكتشفت عالمًا مملوءًا خلقًا لا نراه في أوقاتنا العاديَّة. علَّمتني الحروف الولادة في كلِّ وقت».

«أرى ذلك أيَّتها الشابَّة الآدميَّة، خبيرةٌ بأحكام طلوع الشعرى اليمانيَّة، ساحرةٌ تُدبِّر الأسحار وتُبطلها وتُخرج سمّ العقرب

وتوقف الثعبان، تُطوِّع المسك والزعفران وتُخرج الضيق من الصدور، تعرف ملكات الحروف فتنال المطلوب وتبلغ المراد».

«أعرف السحر لكنِّي لا أُمارسه، أدرس الفلسفة في دمشق، وجئت هنا بطلبٍ من خاتون».

ندمتُ على قولي، تسرَّعت، لم أقل الكلام الملائم للحديث مع جنِّيَّة القلعة التي تراءى لي طيفها المبتسم والمستهزئ وهي تسألني:

«هلَّا شرحتِ ماذا يعني التفلسف؟!»

من أنا حتى أهزم جنِّيَّة؟ أُفكِّر بذلك منذ البداية. أعلم أنِّي أخوض كلّ مغامرات لقاءات الأطياف بقلبٍ وفكرٍ مفتوحيْن. أتلقَّى كلّ شيءٍ بدهشةٍ وامتنان. أعلم أنَّ وجودنا كبشر هو نبع إمكاناتٍ لامحدودة. هنا تغيَّر الحال. لربَّما ثمَّة نسمةٌ تسرَّبت بيني وبينها، نسمةٌ من ريح العداوة بين الإنس والجنِّ. قلت بصدقٍ ونقاء:

«أتفلسف! أي أن أذود عن نسغي. أصون اللبّ الكونيّ الصغير الذي يحمله كلّ آدميّ. أحمي الذرّات الكونيَّة الصغيرة التي تحيا في داخلي. هنالك ذرَّةٌ من بقايا نجمةٍ ما في الكون داخل كلّ آدميّ، والفلسفة تحميها، تخفرها، فلا أفعل شيئًا لا أحبّه. لا أُكْرِه نفسي على ما لا أرغب. لا أقدم على تسوياتٍ بشريَّةٍ وضيعة تُسيء للبّ النجميّ الكونيّ الذي يعيش بين أضلاعي. الفلسفة تأمُّلٌ من أجل نفسي، جمالٌ يُزهر في عمقي السحيق، ينمو من بذرة القبس الإلٰهيَّة.. الفلسفة قلعة».

نطق الطَّيْف: «ها أنتِ تعرفين أنَّ التفكير هو جمالٌ بحدِّ ذاته، جمالٌ يستغني عن المديح. جمالٌ واثقٌ لا يحتاج للغطرسة ليعلن عن نفسه، والسعادة نبعٌ تتدفَّق مياهه بين جوارحنا، السعادة رطبةٌ ومنعشة تلمع في العيون.. الجنس هو اللذَّة والحبّ هو ألم اللذَّة».

كنت أُلاحق الطَّيْف المتراقص حولي. لم يثبت في مكان، يدور مع حركة دخان البخُّور، قالت لي الشيء الأخير:

«أرسلتكِ خاتون هنا، لتشرح لكِ شيئًا ما عن الحبّ. هل تريد أن تُحذِّرك؟ هل تعتقد أنِّي نادمة لأنِّي أُغرمت بآدميٍّ؟ هذا ليس من شأن أبناء الطين! لكنْ بحكم نواميس السحرة وولاة الحروف والكلمات ذكِّريها بقرب موعد لقاء جنِّيَّات المصير الثلاث وقت طلوع الشعرى اليمانيَّة في قلعة دوروا أوروبوس..

ستقعين في الحبّ ذات يوم، وتعلمين أنَّ الإغواء يعني أنَّ هنالك شيئًا أو رائحةً أو أحدًا غامضًا يقودك دون رحمة ولا يهمّك المصير..»

لمع في عينيْها شيءٌ يتوعَّد ويهدِّد. امرأةٌ تلمِّح، تؤثِّر وتسحر، لا يمكن مجادلتها. إنَّها شكٌّ متجسِّدٌ بامرأة، شكٌّ منتشرٌ وشامل. هي عيْنان قبل كلّ شيء.

فكَّرتُ لأوَّل مرَّةٍ أنَّني أعرف استخدام جميع أسلحة السحر: الأرقام، الأحرف، كيف يمكن للحرب أن تُخاض وتُربح بجيشٍ من الكلمات. حمتني الفكرة وقد توجَّست للحظةٍ من الملكة، تلاشت مخاوفي عندما استأنفت حديثها، كانت ببساطة تتوق لشرح شيءٍ ما لأحدٍ ما:

«هي الحياة: ستعشقين وتفارقين وتعلمين أنَّ التذكُّر هو عيْنان تشتاقان لوجوهٍ لا يمكنها العودة..».

ما أسرع ما تبخَّر الطَّيْف وشعرت بسخونة النار حولي. تطلَّعت عبر ضوء القمر المنير في سماءٍ أصفى من نبعٍ ربيعيٍّ. كنت أقف وحدي على شرفة صَرحٍ من صروح الأبديَّة الصامتة. قلعة تنهض بعنقها الصخريّ تحت سماء لا تتعكَّر زرقتها قطّ، وفي الليالي العاصفة ترفع زغل ذراعيْها، وتصرخ منادية قومها هناك في خبايا المجهول لعلَّ الريح تحملها، لكنْ لا شيء غير الصمت. تعلَّمت أخيرًا أنَّ الصمت هو سرُّ الأرض، فلو تكلَّم جبلٌ أو غابةٌ أو بحرٌ لما حكمت الحيْرة الفاتنة عالمنا!

8

قصَّة ثعبانيْن وشبحيْن في قلعة «دورا» و«ماذا قالت الجنِّيَّات الغزّالات عن الحبّ»

المكان: مدينة دورا أوربوس/ ضفاف الفرات

سؤال: ما هو الحبّ؟ ومتى تعرفين أنَّك وقعتِ في الغرام؟

النهارات هائلة في خرائب مدينة دورا أوربوس التي اندثرت وتخرَّبت على أثر هزيمة تدمر وأسر ملكتها زنُّوبيا على يد أورليانوس، وكذلك أسر ملك دورا أوربوس، وانتهى عهد ازدهار هذه المدينة ذات القوام «المقدونيّ» والتي كان سكَّانها الأوَّلون هم من المستعمرين المقدونيِّين، والذين سرعان ما اختلطوا وتأثَّروا بحضارات التدمريِّين والأنباط والبابليِّين، وارتبطت دورا المدينة الشامخة على الكتف الصحراويّ للفرات بازدهار تدمر، وكذلك كان الأمر مع خرابها.

تشتهر الخرائب بأفعوانيْن ضخميْن رهيبيْن يقطنان بئرًا تتجاوز درجاتها الثلاثمئة درجة نحو العمق، ويُقال إنَّها ليست إلَّا بوَّابة لشبكة من السراديب التي تربط بين ضفَّتَي الفرات. ردَّد الأهالي الحكاية ذاتها: الثعبانان هما ذاتهما شبحا الملكة والملك العاشقان اللذان يجوبان ليل دورا أوربوس.

في النهار، يكونان في صورة افعوانيْن، ويتحرَّران ليلًا ليحلِّقا سويًّا على أسوار دورا. وفي الليالي العاصفة، يومض ضوءٌ غريب يؤكِّد المسافرون أنَّه شبح الملكة بذاتها تحمله وتضيء الدرب نحو مملكتها المخرَّبة.

* * *

كلّ ثمانمئة عام تجتمع جنِّيَّات القَدَر الثلاث، اللواتي يتحكَّمن بمصائر أولئك الذين يعيشون في تلك القفار والفيافي والصحراء الممتدَّة إلى ما وراء خرائب مدينة دورا، التي يُستدلَّ عليها من بعيد من خلال قوس النصر المشرئبِّ على الرَّغم من الزلازل والحروب، يُسمِّيه الأهالي بـ «قصر أمّ المصباح»، يسترشد به المسافرون عن بُعد، وكلَّما اقترب البصر من المدينة تتكشَّف آثارها الشاهقة: قصورٌ وحصونٌ وأبراجٌ وحمَّامات ومسرحٌ ومرفأٌ ينفتح على نهر الفرات الذي جرف جزءًا من ذلك المرفأ، المشوَّش باخضرار مياه النهر، وذلك الانعكاس الفاتن الذي تصنعه أشعَّة الشمس الخالصة.

في رحلتي إلى دورا أوربوس، كان رفيقي حرف الياء معلَّقًا على ذراعي الأيسر، مكتوبًا بماء الزعفران على رقٍّ ظبي مثلَّث، لأستفيد من كونه حرف النداء في اللغة، وهذا الحرف هو للجذب

والمحبَّة والاستدعاء والمناداة. صامتٌ وباردٌ وترابيُّ الطباع. شعرت بصحبة هذا الحرف الهادئ والمستقرّ. إنَّها قوَّة التراب التي تُميِّزه. تجمُّعٌ شتاتيٌّ تحت السماء المنيرة بدرب التبَّانة، الرحويَّة الهيئة، وقد انداحت فوقي كسفينةٍ تمخر عباب أوقيانوس كونيٍّ لا يبلغه بشريٌّ. بينما نجم الشمال راسخٌ واثقٌ له فتنة اللامبالاة الأزليَّة.

طلعت الشعرى اليمانيَّة البهيَّة والقمر في برج الميزان، الذي ترعاه كوكبة الحبّ «الزهرة»، وله من البلاد الروم وما بين تخومها إلى إفريقيا وصعيد مصر وتخوم الحبشة وبرقة وكرمان وكابل وسنجار. ستخرج ريحٌ تنتهي إلى القلب ثم ترجع، ويكون الهوى غليظًا، ويكون القمر مضيئًا والكواكب صافية، ويظهر في السماء نجمٌ لم يُرَ من قبل قطّ، وتُلمح أضواء نجومٍ غريبةٍ وينكسف القمر مرَّةً واحدة، ويظهر العدل في كلِّ مكانٍ، يصلح جميع الزرع ويكثر الطير وتتناسل الظباء بكثرة، ويقلّ العسل، ويكون الشتاء باردًا ومياه الفرات ثلجيَّة المزاج.

رحلتي هذه المرَّة لأجل «الحبّ» شاغل البشريَّة. مشاعر محيِّرة تُحيي وتُميت، وكلّ ما رُسم وحُكي وقيل من شعرٍ وكتب، ومن أدبٍ وملاحم وأساطيرَ يحرِّكها سؤالٌ عظيمٌ يحكم الكون ويتعلَّق بحاكمه ومدبِّره ومحرِّكه البديع العظيم، والسؤال الآخر بشريّ، تجري به الدماء والأشواق وحرقة العشق هو «الحبّ».

أرسلتني خاتون لأتنصَّت هذه المرَّة، لطالما درَّبتني على الإصغاء. لن أقابل أحدًا إنَّما جئتُ أسترقُّ السمع.

شعرتُ برجفةٍ غامضة وأنا أتأهَّبُ للتبخير ولفظ التعويذة، رغبتُ بشدَّة أن ألمح أطياف الجنِّيَّات الشقيقات الثلاث. لم تقل لي خاتون أنِّي سأعثر على إجابةٍ شافية حول «الحبّ» لكنْ قطعًا سأسمع شيئًا يُشبه الحقيقة.

نبَّهتني خاتون في مرَّاتٍ كثيرة أنْ لا وجود «لحقيقة». كلّ ما نحظى به في هذه الحياة هو طيفٌ لحقيقةٍ محتملة، وقد يتغيَّر هذا الطَّيْف ويبدِّل هيئته في أيَّة لحظة. ولولا ذلك لخربت الحياة. يخرَّب سحر الحياة إذا ما أفشى لنا الكون أسراره. لا معنى للحياة ونحن نعرف كلّ شيء، ما يحيينا هو «التوق»، الاشتياق للتعرُّف وللاكتشاف، إنَّها فتنة الفضول، لا جدوى للفضول البشريّ في وجود الحقائق الواضحة المصقولة كالرخام.

لفَّني بخُّور المسك واللبان الذكر والمستكى، وتحرَّكت زوبعة الدخان حولي كما لو أنَّها تُغلِّفني عن مرأى أحدٍ غامض..

لن أنسى صوت ذلك الخفقان اللابشريّ لحفيف أجنحةٍ من الأثير الفاتن الذي نحيا دون أن نراه:

حطَّت الجنِّيَّة الأولى وبيدها مغزلٌ لا يكفّ عن الدوران، واستراحت على ساكف البوَّابة المؤدِّية إلى المدرَّج الذي كان يومًا مسرحًا تصدح فيه حناجر المغنِّين، وأرخت جناحيْها الورديَّيْن حيث نقش فهود ونمور وأعناب وحيَّات ونساء عاريات وذكور معربدين يحيطون بأذرعهم خصور النساء.

جلست الجنِّيَّة الثانية التي تخيط النسيج وبيدها إبرةٌ لا تكفّ عن التخييط. أرخت جناحيْها الملوَّنيْن بكلِّ الألوان، فوق أعلى

ذروةٍ من القلعة المنتصبة على شنخابٍ صخريٍّ يُشرف على الصحراء الممتدَّة من كلِّ الجهات.

هنا كلّ شيءٍ فتنة: حياد الصحراء، ورتابة القفار وسكونها، الآفاق الطليقة، الوحدة الجامحة للقلاع المشرفة على مياه الفرات، الجزائر الصغيرة وسط المياه المكتظَّة بأشجار الطرفاء، السماء الزرقاء، وشمس الظهيرة الحارقة.. والفراغ الشامل المنداح، والريح.. الريح تهبُّ وتروح وتغدو من فراغٍ إلى فراغ بلهفة امرأةٍ تهرع إلى حبيبها.

«تعلَّمن، لا ينبغي أن نكون مرئيَّات»، قالت الجنِّيَّة الثالثة ذات الجناحيْن السوداويْن، التي تتوشَّح سيفًا على خصرها، وهي الأخت القاسية والحاسمة والتي تقطع الخيط في لحظةٍ مُحدَّدةٍ منذ الأزل. اختارت السور الجنوبيّ المُطلّ على وادٍ سحيقٍ ومنحدراتٍ صخريَّةٍ تُلامس ضفَّة النهر، حيث تجري مياهٌ من عمر التاريخ بهدوءٍ يشي باستسلامٍ أزليٍّ للمجرى.

في الوقت ذاته، تحرَّك الثعبانان النائمان في أسفل البئر العميقة التي تتوسَّط خرائب دورا.

قالت الجنِّيّة الغزَّالة، وقد راحت تعابث المغزل وتبرمه بين أناملها الرفيعة والرشيقة:

«آه! الحبّ.. الحب!! ما تقولان يا شقيقتيَّ؟»

قالت الثانية التي لم تزل تنسج النسيج والإبرة تلعب بين يديْها:

«لا يعلم هؤلاء البشر أنَّهم في قديم الزمان كانوا: «اثنيْن»، كلٌّ منهما يمتلك رأسيْن وأربع أذرعٍ وأربع سيقان، لكنَّ حاكم

الأرض «بعل» والذي توجَّس وخشي من قوَّة وتمرُّد الإنسان، أشهر سيفه وهوى به على الجسد الواحد وقسمه نصفيْن.. وبدأت سيرة اللهفة منذ ذلك اليوم الحزين في تاريخ البشر، فقد حُسم الأمر وكُتب على كلٍّ منهما أن يعيش مؤرَّقًا ومعذَّبًا بالاشتياق إلى نصفه الآخر..».

تهبّ الريح قادمةً من الصحراء محمَّلةً بالضجيج والسكينة معًا..

تقول السيَّافة التي تتلهَّى بالسيف الذي تلعبه برشاقة البهلوان بين يديْها:

«البشر أبناء الجرح.. مجروحون منذ اللحظة التي وجدوا فيها.. دائمًا هنالك اثنان واثقان أنَّ مشاعرهما المفاجئة ليست إلَّا تكملةً لمشاعرَ قديمة، مشاعر ربطتهما ذات زمنٍ مضى.. يا شقيقتيَّ العزيزتيْن، لا شيء يفنى..».

تتكلَّم الجنِّيَّة صاحبة المغزل:

«الحبّ شيءٌ تقوله العيون، والقلوب، والأذرع والسيقان.. حالما يلتقي النصفان يتعرَّفان على بعضهما بعضًا، لكنْ ما أقلّ ما يحدث هذا وما أروعه عندما يحدث!»

تصمت الجنِّيَّات، بينما يتحرَّك الثعبانان مجدَّدًا، يلتفَّان على بعضهما بعضًا كما لو أنَّهما جسدٌ واحد، في عتمةٍ سحيقة.

تقول الجنِّيَّة التي تنسج دون أن تنظر حولها:

«لحظة الوقوع في الغرام هي لحظة تذكُّرٍ للماضي. بودِّي لو أسأل كلّ قلبيْن مغرميْن: ألا تتذكَّران؟! نعم، هو شيءٌ غامضٌ، لكنَّه شعورٌ طارئٌ ومخرِّبٌ وعابثٌ يهزّ اثنيْن يعتقدان أنَّهما التقيا

مصادفةً.. كما ظنَّ ذلك الملك الذي حكم دورا ذات يوم، ووصلت المرأة التي سيحبّها إلى الأبد بين السبايا اللواتي ساقهنَّ الجند كغنيمة حربٍ إلى بلاطه.. لماذا هي بالذات، قطعًا ليست أجملهنَّ، لكنَّه تعرَّف على نصفه المدوَّن في سجلٍّ سحيق».

تتكلَّم الجنِّيَّة حاملة السيف بأسلوبها اللامبالي وتقول:

«أنْ يحبّ أحدهم أحدًا آخر إذن هو يتذكَّر نصفه الذي كان، لولا الفخّ الذي نصبه حاكم الأرض «بعل» لاهتدى كلّ آدميٍّ إلى حبيبه.. لكنْ ما أكبر خبثك ومكرك يا بعل!؟»

تضحك وهي تلاعب سيفها وترميه في الهواء ثم تلتقطه كما لو أنَّها تمسك بتفَّاحة:

«رمى في قلوب البشر الكبرياء والغرور ليمنعهم من رؤية الحقيقة، وليتوهَّم الواحد منهم أنَّه قد عثر على نصفه الآخر فيذهب إلى الحضن الخطأ!»

تهتف الجنِّيَّة النسَّاجة وهي تُشير صوب البئر حيث يتحرَّك الثعبانان ببطءٍ وحذر، ويزداد التفاف بعضهما على بعض:

«يتوهَّم البعض بالعثور على «الحبِّ»، تعترض سبلهم الأكاذيب والألاعيب، كلّ شيءٍ عدوٌّ للحبِّ. يخاف بعلٌ من الالتحام، من لقاء نصفيْن حقيقيَّيْن. يخشى من عودة التلاقي فيباعد بينهما. بعل الخبيث لن يتنحَّى جانبًا قطّ في هذا الشأن، إنَّه يبثّ الأوهام الكاذبة، ويكبت ضحكته ويُموِّه العلامات والإشارات.. ماكر يا بعل».

حلَّقت الجنِّيَّة الغزَّالة، وهبطت لتجلس على حافَّة البئر التي تؤوي الثعبانيْن.

«كم يخاف حاكم الأرض من العيون! التقاها الملك، كانت أسيرته لكنَّه عثر في عينيْها على شيءٍ ضائع. غامضٌ هذا «الحبّ» غامض! كلّ بدايةٍ هي استئنافٌ لا غير..».

«هسْسس».. تهمس الجنِّيَّة السيَّافة، بينما الثعبانان ينسلَّان بعيدًا في السراديب السفليَّة.

«منذ البداية لم يتغيَّر شيء. يئنُّ الجسد شوقًا لنصفه الغائب. النصف الآخر هو حقيقةٌ تُشبه مجرى الأنهار والغابات والصحارى، تلتهب الرغبات ويجاوبها الخواء فيحزن البشر دون أن يعرفوا السبب. لولا ذلك البتر لما عرف البشر البغض والكره والضغينة والخيانة.. اللقاء! لقاء النصف الآخر، يا لها من نعمةٍ حُرموا منها إلَّا قلَّة قليلة منهم!»

تطير النسَّاجة لتحطّ على إفريزٍ هرميّ الشكل، تتمشَّى وهي تجول ببصرها في أنحاء مملكة دورا أوربوس..

«انظرا يا أختيَّ العزيزتيْن، انظرا ليس هذا الخراب إلَّا جوابًا على صيحات القلوب المجروحة، المهانة بغياب نصفها الآخر. نعلم لماذا يؤذي البشر بعضهم بعضًا، إنَّهم ينتقمون من أنفسهم دون أن ينتبهوا، بسبب ضياع «نصفهم الآخر» يتفنَّنون بإيذاء بعضهم بعضًا.. يا للحزن! يا حاكم الأرض الماكر.. يبنون كلّ هذه القلاع والقصور، يحاربون بعضهم بعضًا، يسفكون دماءهم بأيديهم، إنَّهم في الواقع يبحثون عن ذلك الزمن السحريّ».

تقول الغزَّالة:

«لكنْ يا أختيَّ، قلَّةٌ من يحظون بمقابلة الشطر الثاني ويشفى

ذلك النزيف القديم! نادرة تلك اللحظات السامية للروح تتذكَّر فيها لحظةً من زمنٍ غابر. إنَّه جزءٌ من الذاكرة، ملمحٌ من زمن بداية الأشياء. من يتذكَّره ينجُ».

تقول السيَّافة التي تحلِّق فوق فوَّهة البئر وتتحرَّى العتمة في الأسفل:

«يوم وقعت عينا الملك على أسيرته انتابه شعورٌ مباغتٌ بالتوعُّك. مرض. هذه إشارةٌ عتيقة على الحبّ. يا شقيقتيَّ.. هل هناك أروع من التقاءٍ غامضٍ بالعينيْن!؟ لحظة التقاء ذلك الآخر الخفيّ الذي تسكننا ذكراه!؟ تتلاقى الذرَّات، ذرَّةٌ تنادي ذرَّة. وتبدأ حكاية اللهفة التي لا تنتهي. لقاء النصفيْن بعد طول بعاد صدمةٌ تربك وتسبِّب التوعُّك والمغص في المعدة ورجفةً غريبةً في القلب، يتشتَّت الذهن ويهرب النوم».

تضرب الجنِّيَّة النسَّاجة جناحيْها، تحلِّق قرب شقيقتها، وتشاركها التمعُّن في عمق البئر:

«ماذا يا أختي؟ انظري، كم يعشقان بعضهما بعضًا، انظري، يلتفَّان كجسدٍ واحد، لا يمكن قتل الواحد دون الثاني.. ألا تذكرين كيف رمت بنفسها من أعلى البرج حتى لا يلمسها الملك المنتصر الذي أسر زوجها؟! انظري الحبّ، حبّهما حقيقيّ كقمر هذه الليلة..».

تحلِّق الجنِّيَّة صاحبة المغزل وتدور حول شقيقتيْها:

«انسجي المزيد من خيوط العمر، امنحيهما زمنًا أطول، وأنتِ يا شقيقتي المغرمة بالسيف، اتركيه في غمده، لا تقطعي

خيط الحياة، يومها رأفت بهما قوَّة الأرض الغامضة وحوَّلتهما إلى ثعبانيْن يحرسان مدينتهما بعد خرابها. ما زال في الساعة بقيَّة.. من يتذوَّق اللذَّة الحقيقيَّة يطُلْ عمره وتتضاعف ساعات أوقاته.. لا يمسّ البشر الحياة في لبِّها إلَّا في سكرات العشق، ومن يلتقط «الرائع» ويلمسه يحصل على إكسير البقاء..».

حامت السيَّافة برشاقةٍ رهيبة ودارت بضع دوراتٍ حول فوَّهة البئر، وفي لحظةٍ مباغتةٍ، لوت عنقها وضربت أجنحتها الوحشيَّة، حلَّقت في عمق عتمة السماء بضرباتٍ جامحة وهي تصيح:

«أيُّها الحبّ المنعتق من الضياع، ابقَ هنا للأبد.. يموت البشر لأنَّهم لا يعثرون على نصفهم الآخر.. بل أكثر من ذلك، يتزوَّجون وينجبون الكثير من الأولاد ويجمعون المال بنهم، ويقتنون الأشياء ويتزيَّنون بالجواهر تعويضًا عن فقدانهم للحبِّ. يعتقدون أنَّ السعادة نهرٌ أو بحرٌ أو شيءٌ جارٍ يمكن أن يُلمس، قلَّةٌ من يعلم أنَّها شيءٌ يسبح في الزمن. عسلٌ تمرِّره لحظات العشق المتبادلة بين روحيْن وجسديْن التقيا بعد قرونٍ من الغياب».

تحرَّك الثعبانان باشتياق، كلّ واحدٍ لنصفه الآخر، طوَّقا بعضهما بعضًا كما لو أنَّهما يريدان أن يفنيا في قلبٍ واحد!

خفقت الأجنحة. حلَّقت الجنِّيَّات الثلاث فوق قلعة دورا المشدوهة بالسماء المفتونة بالنجوم، وكلّ ذلك البهاء والسكون وتلك المهابة التي تبثّها القلاع والأبنية الشامخة، التي تنهض في الصحارى بعزلةٍ لا يضاهيها شيء، بينما يهمهم الهواء محمومًا بعاطفةٍ لا يمكنه الإفصاح عنها..

9

ساكنة قلعة شميميس
وقصَّة عطر النمر

هذه المرَّة ستقابلين طيف امرأةٍ وُلدت في أغرب مكانٍ يمكن تخيُّله!

على الرَّغم من مشقَّة رحلة «التناغم» التي فرضتها أُمِّي عليَّ، وراحت ترسلني من مكانٍ إلى آخر، لكنَّني كنت مستمتعةً وأنا أسلك درب «التناغم» الذي تعدّه أُمِّي الثروةَ الحقيقيَّة التي ينبغي أن نمتلكها وهي التي تجذب نحونا الأقدار التي تساعدنا على عيش حياةٍ نظيفةٍ وهانئة.

أصمتُ، أراقب حركة السراب، تفور القهوة. تنفتح كلّ نوافذي وأبوابي: أذناي، عيناي، وروحي. تتغلَّل السماء الزرقاء عبر عينيَّ حتى أعماق روحي. ألمح عبر النافذة عن بُعْد أطلال

قلعتيْ حلبيَّة وزلبيَّة، وأتذكَّر طيف حاكمتها الغاشمة. امرأةٌ رهيبة.

ألتقط ابتسامة شجرة الزيتون المحاذية لبوَّابة المطبخ، ونظرة الحمامة التي تهدل على غصن الرمَّانة القريبة. هذه هي بالضبط عظمة العالم وجماله، أتذوَّقها وأتزوَّد بها. نشوة السكون بلغت تلك النقطة الغائرة من روحي. سكونٌ مطلق لا يعكِّر صفوه أحد. أعود للكتابة. أفتح جهاز اللابتوب وأشمّ رائحة عود الصندل. أحتاج كلّ قواي لإكمال كتابة ما بدأت.

* * *

لم أنسَ يومًا الدرب الذي عبرته صوب شميميس. هو الدرب بعيْنه الذي يسلكه الرعاة وهم يشرِّقون مع أغنامهم صوب بادية الحماد، ويسلكون دربهم المفضَّل عبر وادي الشطيب حيث مسيلٌ مائيٌّ تعبره مياه السيول الموقَّتة.

مرَّت سيَّارتي ببطءٍ بسبب وعورة الطريق الترابيَّة، يجلُّ الرعاة ذلك الوادي على نحوٍ غير عاديّ بسبب الصوت الغامض الذي تخشاه الذئاب، والذي يُسمَّى بـ «عامر الوادي»!

تقول الحكاية الأصليَّة إنَّ راعيًا كان يسوق غنمه عبر الوادي، وخيَّم هناك يريد قضاء الليل. ظهر ذئبٌ وسلب منه شاةً حاملًا. فهبَّ الراعي وراح يصيح بأعلى صوته: «يا عامر الوادي»، سرعان ما سُمع صوتٌ كما الصدى يقول: «يا سرحان ردَّ عليه غنمه..».

ومنذ ذلك الحين، يلوذ الرعاة بأعطاف الوادي هربًا من بطش الذئاب في الليل. تبيت أغنامهم بأمانٍ تامّ، وينام الراعي ملء

جفونه دون أن يخشى على خرافه من أنياب ذئب.

حالما عبرت وادي الشطيب انبسطت أمامي سهولٌ فيحاء تُحيط بقلعةٍ متشامخة كأيِّلٍ يقف على صخرة.

وصلت البشريَّة مع بناء القلاع إلى نقطةٍ حاسمة في وعيها ودفاعاتها ضدَّ الخوف.

اقتربتُ مذهولةً من قلعة شميميس التي انتصبت كشاخصٍ أو شاهدٍ على حالة خوف البشر من بعضهم بعضًا. نعم، القلاع هي أقصى ما يمكن أن تتصوَّره مخيِّلة آدميٍّ خائف.

كيف سأقابل الملكة المولودة في جزيرة النساء ودرعها من جلد النمر؟ امرأةٌ تجمع البسالة والتملُّص.. شجاعةٌ زائغة، لا تُلمس، صيَّادة. لا يوجد من يُشبهها أو من ينحدر منها.

مدينة شميميس هي مدينة الآبار والمرايا. ملكتها امرأةٌ لم يسيطر عليها الذكور، شهوانيَّةٌ عازبة اختارت عالمًا لا يقربه أحد.

ضحكت أُمِّي عندما سألتها عن قصَّتها، وقالت: «ستروي بنفسها حكايتها»!

المرايا بطبعها صموتة، لكنَّها يمكن أن تتكلَّم. لتحدِّثك مرآةٌ عليك أن تكون فطينًا.

نعم، صدِّقوا: المرايا تتكلَّم، لكنَّ البشر لا يسمعونها بسبب الضجيج. وفِّر السكونَ والتناغمَ اللازميْن مع الطبيعة، وستسمع ما تقوله المرايا.

بوسعكم أن تتطلَّعوا عبر مرآة: شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا، ودائمًا سوف تلاقون انعكاس وجهكم الحقيقيّ. ظاهر الأشياء يتغيَّر بتغيُّر حالة النفس. تتألَّقون بحسب فهمكم. سترون أنفسكم

في المرايا أشدّ زهوًا كلَّما اقتربتم من الطبيعة.

«ستعبرين بوَّابة مملكة المرايا. تغادرين مملكة الإنس وتدخلين عالم الحكايات».

المرآة هي قطعة الأثاث الوحيدة التي بقيت لنا من أثر عالم كانت فيه الغلبة للسحر. بفضل المرآة وحدها يمكنني إتمام رحلةً شميميس الغامضة.

نزلت بضيافة البعثة الآثاريَّة المقيمة في بضع قبابٍ من الطين، استأجرها أفراد البعثة من الأهالي الذين يجمعون البداوة مع الفلاحة في طراز حياتهم.

قمت بطقوسي المعتادة، اغتسلت ولبست القطن الأبيض ونعلًا من الجلد، وجسدي خالٍ من الزينة؛ يرافقني على معصمي حرفُ «الثاء» الصامت اليابس الحارّ الرطب الهوائيّ النورانيّ الهيئة صاحب الطبع المعتدل، نقشته خاتون على صفيحة فضَّةٍ عشر مرَّات يوم الاثنين في وقت القمر.

اتَّجهتُ إلى الجهة الشرقيَّة المتاخمة للخندق المحيط بالقلعة الشاهقة، وأخرجتُ المرآة التي أعطتني إيَّاها أُمِّي. مرآةٌ فضِّيَّةٌ بمقبضٍ من قرن الجاموس ومزيَّنة بأحجار الفيروز. مرآةٌ عتيقة يمكن العثور عليها في أسواق الأنتيك. لكنْ تلك التي حملتُها معي تختلف! كيف؟! بسبب الكلمات التي ترافقها. غدوتم تعلمون أنَّ أدوات السَّحَرة هي الكلمات والأحرف، والنطق بالكلمات السليمة يجعل المرآة مختلفة تمامًا، مثلما نحن نغدو مختلفين ونصبح ما نحن عليه عندما نتفوَّه بكلامٍ سليم.

أطلقت بخُوري وتنشَّقتُ تلك الروائح، وغدوت أؤمن بمملكة

الشمّ الرهيبة، لربَّما كنتُ أتخيَّل تلك الأطياف التي ما زلت أروي لكم عنها بفضل «الرائحة» وحدها!

أرسلت الشعرى اليمانيَّة ضوءها المتوهِّج وقد طلعت بكامل بهائها وسط سماءٍ صافية، والنجوم قد شابت بريقها حُمرةٌ خجولة. إذن، القمر في برج ناريٍّ وهو الحمل الذي يرعاه كوكب الحرب والغضب والمزاج الناريّ العاصف، إنَّه كوكب المرِّيخ المدرَّع. له من البلاد أرمينية وأذربيجان وفلسطين وبابل وفارس والبحرين وطبريَّة. ستخرج هذه السنة ريحٌ عاصفة يُقال لها «بوطُس»، ستفتح كفَّها وتسعى صوب أنطاكية وإلى رأس القلب وترجع إلى الشام وتدوم إلى ربع القمر، وأكثر الرياح تكون في هذه السنة شرقيَّةً عاصفةً بالليل والنهار، وستلبس السماء السحاب وتتدثَّر به حتى يكاد أهل السواحل يهلكون، وبعد ذلك، تصفرُّ السماء ويكون القمر أحمر كبيرًا ولا يُضيء كثيرًا وتُكسفُ الشمس في هذه السنة. ولا تكاد الشمس تصفو، وتزيد مياه الفرات ويكثر ماء العيون ويخصب زرع السنة، ويكثر نتاج الإبل والخيل، وتكثر الحيَّات والسرطانات في الفرات. تشجَّعتُ ونطقت بالحروف صاحبة القوَّة القهريَّة على الأرواح الروحانيَّة، وغامت الدنيا حولي. رجفتُ، تحلَّق حولي الخدَّام.

السحر هو فنّ التحوُّل. تحوَّلت أم انتقلت! لا أعرف. لكنِّي حالما نطقت بكلمات أُمِّي رأيت نفسي مُحاطةً بعالم زجاجيٍّ باهر، وسمعت صوتًا أنثويًّا كرنين الفضَّة يقول العبارة الآتية:

«الأحلام كما خلايا الجسد ليست حلمًا واحدًا، إنَّها تتكوَّن من ألوفٍ من الأحلام الصغيرة التي تُشكِّل قوام حلمٍ واحدٍ كبيرٍ وعظيم».

تلفَّتُّ حولي. كلّ شيءٍ كان زجاجًا مبهرًا، أنقذتني واحدةٌ من عبارات أُمِّي الرنَّانة:

«تبدأ الحياة الحقيقيَّة عندما نُدرك أنَّنا نحلم، ويمكننا تغيير هذا الحلم. الحياة حلمٌ طويلٌ سينتهي عاجلًا أم آجلًا، لهذا فلنجعله إذن حلمًا ساحرًا فنِّيًّا مرسومًا مزخرفًا بأهوائنا وشغفنا..

نتحوَّل عندما نُغيِّر الأحلام التي في رؤوسنا والمشاعر التي في قلوبنا. ما يصنع ملامحنا هو أفكارنا ومشاعرنا، وما نؤمن به..».

لهذا أبصرتها للتوّ ملكة شميميس المضيئة.

نطقت:

«أترين؟! السحر هو اتِّفاقيَّاتٌ نُبرمها مع الكلمات فتقودنا إلى الدهشة بكلِّ لحظةٍ في الحياة. السحر استمتاع».

هتفت الملكة وكلتا يديْها تسبقانها وهي تحرِّك أصابع يدها اليمنى تلك الحركة الدائريَّة الرشيقة، التي تُحيِّرني من أين تأتي بها، رشاقة ومرونة أصابع راقصةٍ محترفة.

«وُلدت على جزيرةٍ لا يعثر عليها أحد. جزيرة تنتقل مع الرياح! تخلَّى ملك الصين ذات يوم عن اكتشافها بعد مرور ثلاثين سنة من البحث المضنيّ وغير المجديّ، أنَّى له أن يحزر أنَّها جزيرةٌ ترتحل في المحيط كسفينة! وحدهم سكَّان جزيرة الرجال توأم جزيرتنا يعلمون ذلك».

قلتُ بدهشة: «جزيرة الرجال؟!»

تفتن تلك المرأة الناظر إليها بألاعيب أناملها التي ترافق بعض منعطفات وتفاصيل حكاياتها.

هذه المرَّة، مرَّرتْ أصابعها اللعوب بحركةٍ كما المروحة وهي تكمل سيرتها:

«تدور تانك الجزيرتان مثل رأسَيْ مغزل، وكنت أحتار كيف تتَّصلان ببعضهما بعضًا، وكيف كان الرجال يطرحون فائض النساء لديهم على جزيرتنا، بينما أُمِّي حاكمة الجزيرة لم تكن تمنحهم أيّ ذَكَر، كانت تقتل الذكور، وتختطف الملَّاحين الذين يقودون النساء الفائضات عن حاجتهم صوب جزيرتنا. كان أولئك الملَّاحون الرقيق عند أُمِّي وبقيَّة نساء الجزيرة لاستيلاد الإناث، ولا تصدِّقي عن كذبةٍ تناقلتها كتب التاريخ تقول إنَّ نساء الجزيرة كنَّ يحبلن من الريح، واحدةٌ من أكاذيب الحكَّام المخدِّرة».

قالت ذلك وهي تدوِّر أصابع يدها اليمنى أمامها وكأنَّها تغطِّي الأثير بعباءةٍ خفيَّةٍ لا أراها. دلَّ كلّ حرفٍ نطقته على عدم وفاقها مع أُمِّها. وتذكَّرتُ بضعة أشياء قرأتُها بالفعل عن الجزيرة التي تحكي عنها ملكة شميميس. من ذلك أنَّ الهمذانيّ ذكرها باسم «سوروماطيقا»، والخوارزميّ ذكر شيئًا عن جزيرتَي الرجال والنساء اللتين تقعان في بحر الهند، وعند الإغريق كذلك سُمِّيت النساء بالأمازونات!

سمعت ساكنة شميميس وقد تملَّكتني حالةٌ تامَّة من الإصغاء:

«تخيَّلي جزيرةً محميَّةً بذؤابات الموج، يحميها نجم سهيل ويرعاها! تسبح الجزيرة مع الريح في البحار الشرقيَّة حيث تغلق الحلقة الأرضيَّة بين المشرق والمغرب! هل سمعت شيئًا كهذا؟ في الخرافات وحسب أليس كذلك؟!

اسم جزيرة الرجال «امزانوس» ويفصل بين الجزيرتيْن بحرٌ

متحرِّكٌ من الرمال يبلع أيّ شيءٍ مهما كان ضخمًا أو عظيمًا! على الرَّغم من ذلك، أردتُ المغادرة، أردت التعرُّف على العالم: ماذا يوجد خلف الأفق الأحمر حيث تغرب الشمس بجنونٍ شفقيٍّ لا مثيل له. كنتُ متأكِّدةً أنَّ هنالك بابًا سرِّيًّا للفرار، أنَّ هنالك مفتاحًا ما وينبغي عليَّ أن أعثر عليه.

شعرتْ أُمِّي بتمرُّدي وتحسَّستْ رفضي المبكر عندما اعترضتُ على كيّ ثديي الأيمن. فعلامة الأمازونات كيّ الثدي الأيمن حتى لا يعيقهنَّ عن رمي السهام. كان كلّ شيءٍ مرتَّبًا ومنظَّمًا ومنقادًا لسلطة أُمِّي».

صمتتْ.. انتبهتُ أنَّها تتمهَّل كثيرًا كلَّما ذكرتْ أُمَّها، تابعتْ تقول:

«بكيتُ كثيرًا على إخوتي الذكور الذين يُقْتلون حال ولادتهم».

صمتت الملكة المضيئة التي لم أرَ بحسنها امرأةً قطّ. لا أعرف ما إذا كنتُ قد لمحتُ بريق دمعةٍ في عينيْها السوداويْن كليْل. تابعت كلامها:

«لم توفِّر أُمِّي فرصةً لإقناعي بما تريد. كانت تُردِّد دائمًا: المرأة الحقيقيَّة ليست أحدًا طيِّبًا ولطيفًا أبدًا. النساء الحقيقيَّات لسن حمائم. هنَّ جوارح، مقتنصات، وصيَّادات، يحكمن بقوَّة البراثن والمخالب، والحيلة والدهاء.».

أنهت الملكة المضيئة كلامها، وفي الوقت ذاته فكَّرت بحقيقةٍ كانت تقولها خاتون:

«لا ملكات إلَّا والحيلة والمكر في حاشيتهنَّ، إنَّه شرُّ الملوك

العميق والمدروس، شرٌّ أدواته الأفكار والخرافات».

تابعت كلامها حاكمة شميميس:

«كانت أُمِّي تقول عن الرجال إنَّهم مخلوقاتٌ لذيذة ورديئةٌ في الوقت نفسه.

وحدي فكَّرت بشيءٍ مختلفٍ عمَّا اعتادت نساء الجزيرة التفكير فيه، أردت القبض على الرجل بكلِّ جوارحه.. أردت قلبه!

كنتُ خائفة. يحوِّلنا الخوف إلى بشرٍ متبلِّدين في أفضل الأحوال، أمَّا الأسوأ فإنَّه يحوِّلنا إلى أشرار. جميع نسوة الجزيرة كنَّ شرِّيرات، وكذلك رجال الجزيرة التوأم، لكنَّهم بدوا أقلّ حقدًا، فقد كانوا يستولدون النساء ويطرحون الفائض من الإناث في جزيرتنا، بينما أُمِّي تقتل الذكور حال ولادتهم، وتختطف الملَّاحين وتجعلهم رقيقًا ومستعبدين يخصِّبون نساءها!».

لأوَّل مرَّةٍ أُفكِّر باحتمال أن تتفوَّق النساء على الرجال في القسوة، كما ذكرت ساكنة شميميس. «إنَّ الخوف هو الذي يجعلنا قتلة، وخوف النساء من الرجال أعظم من خوفهم هم من النساء.. ربَّما!

كانت أُمِّي تقطن في قلعةٍ ترفع عنقها الحجريّ بتغطرسٍ وتلذُّذٍ فوق الموج.

لو كنتِ قد عشتِ في قلعةٍ لكنتِ علمتِ أنَّ الأقبية هي المكر الدفين الذي تؤويه القلاع. نعم، السراديب هي أفكار القلاع الشيطانيَّة المخبَّأة بهندسةٍ فريدة.

استبداد الطبيعة يتجسَّد في جبالها، وتكبُّر البشر وخوفهم في

آنٍ واحدٍ يتجسَّد في بناء القلاع. كلّ ذلك ضربٌ من قتال الطبيعة والخوف على حدٍّ سواء».

تقاطعت أفكاري مع ما كانت تقول ساكنة شميميس الغريبة. بالفعل، فكَّرت بالشيء ذاته وأنا في طريقي إلى هنا، كنت دائمًا على قناعةٍ مطلقة أنَّ القلاع شهادةٌ حازمة عن خوف الإنسان، إنَّها تجسيدٌ هندسيٌّ لرعب البشر، الرعب الأكثر اكتمالًا وشراهة.

يؤرِّق الغدر بني البشر فيشيِّدون مخاوفهم على هيئة قلاعٍ تمتطي هامة الصخور الشاهقة. تقليدٌ أعمى وصريحٌ ومباشر لسموٍّ النسور.

أصارحكم: افتُتنت بحكاية هذا الطَّيْف الذي لفَّقته لي معادلات أُمِّي السحريَّة العجيبة.

«للمرَّة الأولى أشعر أنِّي أمام شخصيَّةٍ لا أريد للقائي بها أن ينتهي. لا أريد مغادرة المرآة، أريد البقاء في صلب الحكاية الغريبة التي كنتُ أسمعها».

«كانت أُمِّي تربِّي تنِّينًا رهيبًا يحمي بوَّابة قلعتها. كنتُ أعتقد أنَّ التنانين تُخلق وهي كذلك. كائناتٌ مخيفة ولا يُخيفها شيء، إلى أن علمت ذات مرَّةٍ أنَّ التنِّين يكون أوَّل أمره حيَّةً تتغذَّى على دواب البرِّ حتى تكبر، وتتذوَّق كلّ نكهات كائنات البرّ، وبعدها تقصد البحار وتتذوَّق ملذَّاتها وتأكل من خيراتها، وفي الأعماق تكبر في البرودة والعتمة الأزليَّة في بطون البحار والمحيطات: تتحوَّل، تنتشي بنفسها، تغرم بجسدها، تعشق صورتها التي رسمتها في مخيِّلتها، وبتمهُّلٍ شديدٍ وعنيد تتحوَّل إلى حلمها. تغدو تنِّينًا محرشفًا لا يطيق النظر إليه أحد، ولا طاقة لمخلوقٍ

على مواجهته. يمكنه أن يُحدث الأمواج العاتية ويزدهر أثناء العواصف، ويقلب السفن كلَّما تحرَّك.

إذن، لا بدَّ من التقاط القوى المجهولة الخفيَّة المتجوِّلة حولنا. طاقةٌ غير ملموسة لكنْ معلومة من قبل وعينا العميق النائم. حالما نستيقظ سنعثر على الجسر الذي يصلنا بالقوى الخفيَّة والمصدر العظيم للطاقة. الروح الكونيَّة، الروح التي تضبط وتراقب وتُفكِّر وتشرف وتختار الأفضل. كلّ الجمال المحيط بنا هو انعكاسٌ لجمال الروح الخفيَّة، وهذا ما غدوت أطمح إليه، بينما تريدني أُمِّي أن أخضع لعمليَّة كيّ الثدي! لا يمكنني تقبُّل هذا القبح. كيّ الثدي تعنيفٌ للجسد وتحويرٌ وتزوير، دون ثديي أفقدُ هويَّتي. أخرِّب جسدي لأشبه الرجال!!»

قالت لي ذات مرَّةٍ بحسم وعناد: «كيّ الثدي أمرٌ إلٰهي، أوامر الإرادة العليا التي تأتي من السماء».

نظرتُ إلى السماء وقلت باعتراض: «هذا الكون الواسع حرّ، وليست لديه أيَّة معتقداتٍ أخلاقيَّةٍ يا أُمِّي، ولن أكوي ثديي وأخاصم لحمي وجسدي، لن أترك مكان الثدي المكويّ مشغولًا بذكرى الثدي الذي كان. سيمرض جسدي بذاكرته».

سُجنت. احتُجزتُ عقب ذلك، وطرحتني باحتقار في أحد سراديب القلعة وقيَّدتني بالسلاسل، وكانت البوَّابة الرئيسيَّة المؤدِّية إلى أقبية القلعة محروسةً بنمرٍ شرسٍ تفوح منه رائحةٌ مخدِّرة، منعشة وغير مُحدَّدة أبدًا، لكنَّها كانت أكثر من رائحة، كانت عطرًا. يومها انتبهت إلى أنَّها رائحة أُمِّي.

أعلنتُ انسلاخي عن قوانين الجزيرة وتمسَّكتُ بأصالة

جسدي. قبل ذلك، كانت قد حرَّضت بعض خادماتها على التحرُّش بجسدي وإفسادي بمتعةٍ تنسيني حبّ الرجل.

رفضتُ كلّ محاولاتهنَّ الشبقة والخبيثة، ورفضت كلّ ملامساتهنَّ التي اعتدن تبادلها فيما بينهنَّ علانيةً بين أحضان الأشجار وعلى ضفاف الينابيع.

أخطأتْ أُمِّي كثيرًا بإنزالي إلى عالم الأقبية، لأنَّني اكتشفت هناك سرَّها.

تجوَّلت لأيَّام كثيرة في تلك السراديب المعتمة، بل اعتقدت أنِّي تهت في شرنقةٍ لانهاية لها من الممرَّات والكوَّات التي تشكِّل العالم السفليّ للقلعة.

سمعت ذات يوم صدى انتشاءاتٍ لا مثيل لها، كانت عاصفةً من الشهيق والزفير والتأوُّهات. كانت حادَّةً إلى حدٍّ اعتقدت أنَّها امرأةٌ تضع وليدها. فقد اعتدت صياح النساء وهنَّ يضعن مواليدهنَّ في كلِّ أنحاء الجزيرة. أيضًا، اعتدت تلك الأصوات التي تصدر في لحظات الانتشاء التي تتسبَّب بها أعضاء الرجال المستعبدين في الجزيرة لإخصاب وإسعاد فروج النساء.

استغرق تكرار الصدى عدَّة أيَّامٍ حتى بدأتُ أتبيَّن الجهة التي يأتي منها.

لم أعتقد أنَّه يمكن للبشر أن يعيشوا حياةً كاملة بالغشّ. غشَّتنا كلّنا أُمِّي الملكة التي احتفظت بكلا ثديَيْها الممتلئيْن والمشرئبَّيْن والمزيَّنيْن بالخرز والذهب، بذرائع أوامر ربَّانيَّة، بينما حرمت كلّ النساء من نعمة جمال ثديَيْن في جسد امرأة! إنَّه خبث الحكَّام وشرُّهم وهم يحرمون الناس ممَّا يُبيحونه لأنفسهم. رأيتها

هناك تتلذَّذ بأحضان رجليْن. تتلوَّى وتتأوَّه وتمنح ثغرها وثديَيْها لأحدهما وبينما تترك نصفها الأسفل وقد امتطاه الآخر بجنونٍ داعر. للحظة، كنت أعتقد أنَّها ستموت بعد قليل لفرط النشوة. كانت تمنح فرجها لكلا الرجليْن وتنعظهما وتنتشي وقد سال عرقها ولمع على جسدها، بحيث رأيته على الرَّغم من بصيص الضوء الخافت المنبعث من سراجٍ يتوسَّط الغرفة.

تركت جسدها يهدأ تحت وابلٍ من القبل التي انهمرت من الرجليْن كما لو أنَّهما يُطفآن حريقًا هائلًا. بعد ذلك، نهضت وشاركتهما الأكل والشرب، وغادرتهما وهي تترنَّح وبالكاد تمشي. يومها، لم أستطع اللحاق بها لأنَّها كانت ستسمع رنين السلاسل التي وضعتها في كلتا رجليَّ، فلم يمكنني التنقُّل إلَّا بخطواتٍ قصيرة تُحدث صوتًا ستسمعه من كلِّ بدّ، بعد أن أشبعت شهوتها وتلاشت عاصفة التأوُّهات الفاجرة.

تربَّصتُ بها لأيَّام وعلمت مواقيتها، وكان عليَّ أن أنتظرها في مكانٍ ما قريبٍ من البوَّابة الرئيسيَّة التي يحرسها النمر.

رأيتها وهي تلامس النمر الذي يهرّ بين يديْها كقطٍّ أليف، كانت تناديه بعبارةٍ لم أنتبه تمامًا لمعناها، اعتقدت أنَّها تنطق بها تدليلًا وحسب، كانت تخاطبه بكلمة: «يا روحي».

صمتت شميميس ساكنة. نظرت فوق كتفيَّ حيث تستقرّ ورائي مرايا لا نهاية لها. كانت قد وصلت المرأة المضيئة بحكايتها للجزء الأكثر تشويقًا.

«قتلتُها»، نطقت تلك الكلمة وهي شاردة بعينيْن خبا بريقهما فجأةً وتغيَّرت ملامحها.

«كان عليَّ أن أقتل النمر لأفرّ. كنت قد سمعت من الرجليْن المحتجزيْن في ركنٍ سرِّيٍّ من أقبية القلعة أنَّ هنالك طريقةً لعبور بحر الرمال المتحرِّك الذي يفصلنا عن جزيرة الرجال. سرٌّ بسيطٌ ولا يمكن أن يخطر على بال.

يهدأ بحر الرمال الملتهمة لمدَّة ليلةٍ واحدة، هي ليلة السبت التي يتحكَّم بها كوكب زحل الغامض. امتلكت سكِّينتي التي قمت بصقلها لأيَّام من حجرٍ صوَّانيٍّ قاطع، وتأكَّدت تمامًا أنَّها غدت أداةً قاتلة فيماً لو قُبض عليها بشجاعةٍ وبراعة.

كنت شجاعةً. لم أنسَ قطّ خرير النمر وهريره المنازع، ضربةٌ واحدة سدَّدتها إلى قلبه، تدفَّق دمه غزيرًا ورمى بجسده بين أحضاني، عانقني وهو يلفظ أنفاسه، لم أفهم أنِّي أقتل بذلك أُمِّي. لكنَّ شيئًا غريبًا قرأته في عينيْه الذهبيَّتيْن. نظرته الأخيرة التي غمرني بها، قبل أن يرتمي يزفر روحه. انفتحت الأبواب فجأةً، وفهمت، وانتبهت. أشدّ أشكال التعارف قسوةً هي تلك التي تسبق الفراق.

حلَّقت طاقةٌ مرتبكة حولي، شعرت بها تمامًا، لم أنسَ تلك الهالة المغناطيسيَّة التي جعلتني أرتجف ويقف شعر جسدي رهبةً وحزنًا. علمتُ أنِّي ارتكبت خطأً لا يصلحه شيء.

جريمتي لا تُغتفر. لم أقتل نمرًا يحرس بوَّابة! إنَّما أزهقت روح ملكةٍ مبجَّلة بصولجانٍ وتاج، تحكم أرضًا تغتسل شمس صباحها عند تخوم الأوقيانوس الذي يحتضنها كدرَّةٍ لا يمنّها لأحد.

انتبهتُ إلى أنَّها تتلمَّس جلد النمر الذي تحيط به كتفيْها وينسدل حتى ركبتيْها.

فهمت للتوّ رائحتها الفريدة التي لا تُصنَّف».

صمتت حسناء شميميس. تبادلنا النظرات، وكأنَّها فهمت ما أُفكِّر فيه، صوَّبت عينيْها إليَّ وتحسَّستْ جلد النمر بارتباكٍ وحنانٍ وحزن، وقالت:

«ماذا تعرفين عن النمور؟! لِمَ يُغرم البشر بهذه الوحوش بالذات؟! وحشٌ ببراثن جميل، أخَّاذٌ ومفترس في الوقت نفسه؟ بهاءٌ منقطع النظير، كأنَّه خُلق ليُذكِّر البشر بما يفقدون؟!

للنمر رائحةٌ تنبعث منه ليجذب ضحاياه. لأنَّكِ ابنة خاتون لربَّما تعلمين أنَّ الأسود تُخدِّر ضحاياها بالخوف، والضباع تقتل الضحيَّة بالغدر، والذئاب بارعةٌ باجتراح الكمائن، والثعالب تحتال وتخدع.. لكنَّ النمر ينقضّ خلال لحظاتٍ ويفتك بضحيَّته. الوحش الذي يجذب ضحيَّته قريبًا أقرب ممَّا يمكنها أن تفلت وهذا سرّه، إنَّها الرائحة.

أخطر الروائح تلك التي تتحوَّل إلى خيطٍ يسحبك شيئًا فشيئًا، ثم لا يمكنك أن تهرب قطّ. رائحةٌ تتكوَّن من اعتداده بنفسه بانفراده بخلوته. لا يكاد النمر يخالط أحدًا. خلطته سرِّيَّة لا يعرفها أحد. كم يحبّ البشر النمور إذ هي تُمثِّل كلّ ما شكَّل صدمةً لغرورهم! تزدرينا بجمالها وقوَّتها وشراستها ولامبالاتها بنا. ببراعتها بالصيد. بذائقتها الفريدة تتغذَّى على الظباء.

مثلًا لن يستوي الخنزير قطّ بالنمر! وهنا بالضبط الجرح الذي يؤذي البشر.

كلّ آدميٍّ له قرينه وشبهه من الحيوانات. سبب ندرة النمور هو كثرة الخنازير مثلًا!؟

كلّ السَّحَرة بارعون بوضع البشر في مصافِّ الحيوانات، وهكذا يقومون بفرز من يقابلونهم».

تذكَّرت خاتون. كنت أعتقد أنَّها شرِّيرة، وأنا أراها كيف تزرّ عينيْها كلَّما قابلت أحدًا من زوَّارها: «هذا نمر وهذا كلب وهذا أرنب وهذه حيَّة وتلك حمامة..».

أحلام الأرانب تختلف عن أحلام النمور. براعتها بقراءة العيون يجعلها تقرأ أحلام ضيوفها. يُحرِّك البشر أيديهم، ويمكنها التقاط اختلاجات المخالب اللامرئيَّة عبر أصابعهم.

«سأقول لكِ». انتشلتني صاحبة الطَّيْف البهيّ النورانيّ وهي تعود للكلام وقد رمت إحدى ذراعيْها على أحد الأعمدة البِلَّوريَّة اللامعة كأعجوبة، وتركت الأخرى حرَّةً ترافق كلامها بإيماءاتٍ مرنة. تابعت كلامها:

«دبَّ الصراخ في كلِّ أنحاء الجزيرة، نحَّيْت النمر القتيل عن جسدي، وقطعت السلالم الحلزونيَّة المتَّجهة صوب الأعلى. قطعت خطواتي بجسدي المغطَّى بدم النمر. سيطر الذهول على كلِّ النساء وحتى الرجال القلائل الذين مهمَّتهم الإخصاب. جاءت كاهنة الجزيرة التي كنَّا نتلقَّى على يديْها بعض العلوم التي حفظتْها عن كتب الأقدمين. انحنت النساء لي، أنا الملكة الجديدة. حملت رائحة أُمِّي التي كانت سرّ سلطتها.

أذعنتُ في البداية. أقنعتني بذلك كاهنتنا التي هدَّأت من نفسي وهي تُخبرني شيئًا حفظته عن الزمن الذي حكمته الفلسفة، فتنتني الفكرة: لا وجود للموت، هناك ذرَّات تتفرَّق وحسب. ولهذه الذرَّات ذاكرة، وتعود لتلتقي مرَّةً أخرى وتتماسك وتُخلق من جديد.

لكنَّ الحزن كان أقوى. لم أقوَ على نسيان حقيقة أنِّي قتلت أُمِّي.

كدت أقتل نفسي. صمتُ عن الطعام والشراب. بكيتُ لأيَّام متواصلة وأنا أتذكَّر تلك النظرة في عينَي النمر الذهبيَّتيْن. تحوَّلَ العالم كلُّه إلى نظرة. عينان مغدورتان معاتبتان. لم تتخلَ عنِّي كاهنتنا وأخبرتني أنَّنا قطعًا من نُثار النجوم. نحن مكوَّنون من ذرَّات الكون العظيم الذي تحييه النجوم، ونحن لامعون ومُشعُّون. وُجدنا هنا لسببٍ سعيد، وكلَّما عرفنا ووعينا ذلك تألَّقنا أكثر، لمعنا أكثر. نحن البريق بحدِّ ذاته إذا أدركنا ذلك في الوقت الملائم.

ذات ليلة سبت مقمرة وعامرةٍ بالنيازك، نظرت إلى السماء حيث استلقت درب التبَّانة بنجومها جميلةً كغفرانٍ شامل. على الرَّغم من أنَّ كاهنة الجزيرة أخبرتني أنَّ السمّ دأبه اقتفاء أثر درب السعادة، يقرأ أثرها بفضل الهفوات التي نرتكبها ونحن نسعى لإسعاد أنفسنا، أخذت الذكرى الوحيدة التي أردتها من تلك الجزيرة.

كان الوقت الملائم لأُغيِّر حياتي. حيَّيْت طاقة كوكب زحل التي تُوقف تحرُّك بحر الرمال ليلة السبت، وعبرتُ المستحيل، ودخلت جزيرة الرجال، انحنوا لي. إنَّها الرائحة التي لم تكن تُخفى على أحد. قابلت ملكهم، أردت أن يساعدني أحدٌ على الخروج من عالميْن مخالفيْن للطبيعة. لم أقتنع قطّ بجدوى فصل الرجال عن النساء.

لدى لقائي لملك أمزانوس، لاح لي أنَّ ما ذكرته كاهنتنا عن

الذرَّات التي تنفصل لتعود للتلاقي مرَّةً أخرى أنَّه أمرٌ ليس بعيدًا عن الصحَّة. نعم، الحبّ سفرٌ من النسيان إلى التذكُّر، كانت ذرَّاتنا تعرف بعضها بعضًا. التقينا، الحبّ تذكّر ما نسيناه، يقظةٌ متبادلة، عرف كلانا ذلك. تذوَّقت المتعة الأزليَّة».

اقترب منِّي الطَّيْف وتراجعت للوراء. لا أعرف ممَّا خفت! لربَّما هي رهبة سماع الاعتراف من الطَّيْف. تابعت تحكي لي بشرودٍ وتركيز، وتنطق كلماتها ببطءٍ، وثمَّة إيقاعٌ في عباراتها:

«عندما يعثر الجسد في الجسد الآخر على لمسته الناقصة يغتني به ويثرى ويتضاعف. مع الحبِّ، يغادر الجسد حدود الممكن والملموس صوب لحظةٍ مأثرته الحقيقيَّة في الوجود..».

انتبهتُ إلى أنَّني غدوت أقف على شرفةٍ يطلّ عليها بدرٌ مكتمل، بينما تبدّل مكانها وبدت كما لو أنَّها تبتعد أو لعلَّ صورتها تتلاشى، نظرتُ صوب القمر وسمعتها لآخر مرَّةٍ في حياتي:

«من ينظر إلى القمر دون أن يرفَّ له جفنٌ هو ساحر..».

تلاشى الطَّيْف والمكان وانعدم وزني، ووجدت نفسي وبيدي مرآتي وضوء النجوم يغمرني بغموض.

عدت أدراجي وفي ذهني يتردَّد كلامها الذي لم أنسه يومًا:

«في الحبِّ نتفرَّج على جسد الآخر، ونُقبِّل ما هو امتدادٌ لجسدنا وتناغمنا مع جسدٍ آخر، هو الأمر الذي يُضفي سحرًا على الحياة برمَّتها..».

10

شبح الحرشافة في غابات الفرنلق
المرأة الشرِّيرة الملقَّبة بأمِّ يقظان

أمّ الشرور والحيَّات والسموم. امرأةٌ دميمة وُلدت وعاشت في كنف عرَّافٍ شهير في إحدى ضويعات غابات الفرنلق في الشمال السوريّ.

كان العرَّاف الملقَّب بـ «الحِسْل»، يقصده الناس من حلب وأزمير وأنطاكية واللاذقيَّة.

قيل إنَّه رمى الطفلة الدميمة التي ولدتها زوجته في بئرٍ لتموت. لكنَّ الطفلة العنيدة لم تمت وأخرجها عقب منامٍ رآه عنها.

بدأت قصَّة الحرشافة قبل ولادتها فهي مولودةٌ في أسرةٍ اشتهرت بالتنبُّؤ وممارسة السحر عبر أكثر من جيل، وأُمّها أيضًا

كانت مشعوذةً خطيرة يخشاها الجميع وهي ابنة عمِّ أبيها، وقيل إنَّها كانت تعاشر التيوس! ولم تكن ابنتها الدميمة الملقَّبة بالحرشافة لقبحها إلَّا ثمرة مضاجعة الأُمّ لأحد التيوس في حظيرتها.

حكى الأهالي أنَّ قدمَي الحرشافة مشوَّهتان تشبهان قدمَي العنز، ووجهها يحمل كثيرًا من ملامح الماعز. كانت قباحتها لا توصف، لهذا ضربت دائمًا خمارًا على وجهها. أمَّا صوتها فيُشبه مواء القطط، وقيل إنَّ أسنانها مدبَّبةٌ بشكلٍ مريع.

وما إنْ بلغت السابعة من عمرها حتى راحت تتنبَّأ بأقدار البشر الذين تلمحهم يقصدون أباها. كانت تلعب أمام المنزل ووجهها مغطّى دائمًا، وكلَّما لمحت زائرًا قالت أشياء عن حياته تكون صادقةً على نحوٍ غريب. سرعان ما استثمر الأب موهبة الابنة البشعة والتي لا يطيق النظر إلى وجهها، وكان لا يسمح لها بتناول الأكل أمامه، كما حذَّرها من إزاحة ذلك الخمار الذي كان يغطِّي وجهها حتى خلال النوم. كانت في العاشرة من عمرها عندما تنبَّأت لسيِّدةٍ جاءت تكتب حجابًا لابنتها المتزوِّجة حديثًا والتي سترحل قريبًا إلى أميركا. أخبرتها بكلِّ بساطة أنَّ السفينة الضخمة ستغرق والعريس كذلك، لكنَّ ابنتها ستنجو وتعيش طويلًا وتدفن ثلاثة أزواج. كذلك أخبرتها أنَّ قريتها ستنعى اثني عشر شخصًا سيموتون في الماء. حدث ذلك خلال أقلّ من شهريْن، وكانت تلك السفينة العظيمة التي وصفتها هي بذاتها جبَّارة البحار التي لا تغرق ولا تحترق ـ «التيتانيك» الشهيرة.

اعتاد الناس زيارة البصَّارين قبل الشروع في رحلةٍ طويلة.

بين 1900 و1914، غدت فكرة «الهجرة» جنونًا يعصف بالناس بعد أن كانت الهجرة مقتصرة على الفقراء من أبناء كلّ الأديان. ولكنْ بعد أن ألغى العثمانيُّون امتيازات المسيحيِّين وقرَّروا سوْق أبنائهم للخدمة الإلزاميَّة، هاجر الشبَّان وغدت البحار ملاذًا للفارِّين والنازحين من نير العثمانيِّين.

اشتهرت الحرشافة بنبوءاتها العجيبة، يكفي أن تسمع صوت مُحدِّثها حتى تلهمها قوى غيبيَّة غريبة كلامها، فتُجيب ما سيظهر أنَّه عيْن الحقيقة. وعندها جوابٌ عن كلِّ سؤال. أثرى الأب من نبوءات البنت «العنزة» التي كانت تربِّي حنشًا أسود بطول متريْن، ولا تسمح لأحدٍ المساس به.

اختفى عرَّاف غابات الفرنلق «الحسل» عندما بلغ الخمسين. رحل من القرية بعد أن قتل زوجته التي تضاجع التيوس، وأحرق المنزل، وقيل إنَّه حمل أكياسًا محشوَّة بالذهب الذي تلقَّاه مقابل نبوءات الحرشافة. اختفى الحسْل دون أثر.

نجت الحرشافة بأعجوبة من الحريق. ونبذها الناس واعتبروها ممسوسة، وأفتى شيخ الجامع في قريةٍ مجاورة بإبعادها. قيل إنَّها تعرَّضت لمحاولاتٍ جادَّةٍ بالقتل من أهل القرية الذين اعتبروا وجودها لعنة، بعد أن نزل سيلٌ من الجبال وجرف أكثر من نصف بيوت القرية، واجتاحت الكوليرا الضياع وفتكت بأرواح الكثيرين. خلال جائحة الكوليرا، اختفت الحرشافة عن أنظار الأهالي.

بعد مرور حوالى سنتيْن، اكتُشف مكانها. وسط أشجار

الحراج المتعانقة: سنديان وبلُّوط وصنوبر وأرز ولزَّاب وعرعر وبطم وشوح، ينساب ينبوعٌ من عضد كتفٍ جبليٍّ من الصخر، يخفي وراءه كهفًا عميقًا يصعب الوصول إلى فمه اللائذ وراء المياه.

يُسمَّى بكهف «الدبَّة». اشتهرت تلك الغابات بوجود الدبّ السوريّ الذي انقرض. كانت تلك الدبَّة تقطن الكهف، لأنَّ بوَّابته تواجه نجم الشمال حيث تدور حوله كوكبة بنات نعش، والدببة لا تلد إلَّا تحت ضوء تلك الكوكبة كما يقول الناس، والحرشافة قطنت مكان الدبَّة. ولا يعلم أحدٌ أين اختفت دبَّة غابات الفرنلق!

عاشت الحرشافة في المغارة التي حمتها الطبيعة بخندقٍ عميق من الصعب عبوره، وزادت منعته بعد أن ربَّت الحرشافة فيه عددًا كبيرًا من الثعابين التي تُقدِّم لها لبن الماعز التي تربِّيها إلى جوارها في المغارة.

لأنَّ الحيَّات والأفاعي تهرب من صوت البوم، فإنَّ الحرشافة دأبت على تتبُّع هذه الطيور الليليَّة والإمساك بها واستخدامها في شعوذاتها: تذبحها بسكِّينٍ من حجر الشبَّة، ولأنَّها تعلم أنَّ إحدى عيني البوم تنام والأخرى تسهر، تقتلع العينيْن وترميهما في وعاء ماء. العين التي تطفو هي التي لا تنام وتلك التي يغطِّيها الماء تنام. تجفِّف الاثنتيْن وتبيعهما لغايتيْن مختلفتيْن لذاك الذي يريد أن يحمل ذرور رماد العيْن التي تسهر في قلادة، وللذي يضنيه الأرق يجعل تلك العين التي تنام تحت وسادته. وتطعم القلب مشويًّا لمن تصيبه اللقوة، وتخلط مرارته بخشب البلُّوط لتفتيت حصاة المثانة.

حالما يقترب آدميٌّ من المكان، ينتصب أفعوانٌ بطول المتريْن، له وجهٌ يُشبه وجه الإنسان، ويعلم الأهالي أنَّ الأفعى تكتسب مثل هذا الوجه عندما يتجاوز عمرها ألوف السنين.

مثل هذه الحيَّات يمكن أن تقتل الآدميّ بصفيرها.

لم تترك الحرشافة أفعوانها الرهيب دون اسم! فقد أطلقت عليه اسم «أبو يقظان».

لمدَّة عشر سنوات وهي تلقي نبوءاتها بصوتها المقزِّز التي يُشبه صراخ قطَّةٍ من أعلى الصخور.

يأتيها الزائرون من بقاعٍ مختلفة، وغدا هنالك أدلَّاء يوصلون القاصد مغارة الدبَّة حيث تقطن العرَّافة الدميمة التي لا تكشف عن وجهها قطّ، فقط ثمَّة شقٌّ صغيرٌ تتحرَّك خلاله عيْنان مثبَّتتان كالمسمار المضروب في وجهها.

تجوس الحيَّات ذلك الخندق الذي يفصل بينها وبين زائرها.

يبدو أنَّها أنبأت أحد الرجال عن خيانةٍ تقترفها زوجته، فراقبها من ساعتها وظفر بها مع ابن عمّه الذي كان يزني بها، فقتلهما في الحال.

قرَّر شقيق المقتول الانتقام من الحرشافة التي أنبأت الزوج المغدور وكانت سببًا للمأساة.

قيل إنَّه جاب أنحاءً مختلفة من سوريا لسؤال البصَّارين عن طريقةٍ لقتل الحرشافة.

كان لا بدَّ من قتل الأفعوان «أبو يقظان» للظفر بها.

حار ذلك الشابّ الشجاع في أمره، وأصرّ على طريقةٍ لقتل

الحرشافة. كيف له أن يقتل الأفعوان الذي إذا قلعت عينه عادت، وإذا قطع ذنبه نبت، كذلك نابه إذا قُلع عاد بعد ثلاثة أيَّام!

أعطاه أحد البصَّارين قرب مدينة حماة سرًّا يساعده على الفتك بـ «أبو يقظان» وبقيَّة الحيَّات التي تحرس الحرشافة.

أخبره أنَّ الحيَّات تفرّ من الرجل العريان، وتموت الأفاعي التي تجاوز عمرها الألف عام إذا ما ضُربت بسوطٍ مسَّه عَرَق الخيل!

أخبره ذلك البصَّار: «الفزع هو الذي يقتل، يفتح المسامّ ويهيِّج السمّ، إيَّاك والخوف».

لم يعرف أحدٌ من تلك القرية الصغيرة المخبَّأة في أحد بطون غابات الفرنلق كيف قُتلت الحرشافة، فقط يروون حكاية الشابّ المنتقم الذي استطاع تجاوز خندق الثعابين وقتلها وتطهير المغارة منها. الشيء الأكيد أنَّه قام بحرقها دون أن يكشف عن وجهها وجسدها كما أوصاه البصّار.

* * *

لا تنعم الروح بالصفاء إذا ما تورَّطت بالأذيَّة أو العنف. لا أحبّ إطلاق الأحكام أو لعب دور القاضي.

يؤمن السحرة بقدسيَّة الكلام، الأفعال، النظرات.. يتهيَّبون أبسط التفاصيل ويمنحونها حقَّها من التمعُّن والقراءة. لم يعد الأمر بيدي، أدركت أنَّ خاتون حصلت على مرادها، غدوت أشبهها. فكَّرت فيها وأنا في طريقي للقاء طيف الحرشافة دون أن أكون متحمِّسةً مطلقًا لمثل هذا اللقاء.

تحت قبَّة سماءٍ خلت فجأةً من السحب، تومض نجمات بعيدات غافيات في فضاءٍ حيث ما كان لأحدٍ أن يحبّ أو يكره، أو يغدر بأحد، عندما بغتةً لمحت نيزكًا يخرّ مضيئًا لأقلِّ من لحظة، بينما النجمات بدت هناك أو ليس هناك.. حيث يحدث كلّ شيءٍ بهدوء.

غاص البدر بين السحب، بدا ضوؤه مثل شمعةٍ بعيدةٍ تومض عبر زمنٍ غابر، غمرتني برودةُ غاباتٍ منعشة، وزاخرةٍ بالبراءة. براءة! من أين أتيتُ بهذا التعبير؟ كيف يمكن لهواءٍ باردٍ أن يكون بريئًا؟ غدت أفكاري مختلطة وفي الوقت نفسه مشبوبةً بأشياءَ لا أفهمها، لكنَّها تُريحني.

«كلّ البشر جبناء أمام البوْح. أتعلمون؟ علينا أن نفشي أسرارنا على نحوٍ ما، وإلَّا فإنَّها ستتحوَّل إلى حروقٍ تلذعنا في أعمق عروق القلب. لهذا نكتب ونرسم ونروي، نصبح شعراء وفنَّانين..».

كان الوقت مسائيًّا، وثمَّة ضجيجٌ يملأ المكان بسبب فِرق التخييم التي نصبها شبَّانٌ وشابَّات جاؤوا من جامعة مدينة حلب. سمعت جَلَبتهم بوضوح. كانت فرحتهم كبيرةً بالتخييم وإلقاء أنفسهم في حضن الطبيعة. سمعت دقّ طبولٍ وطقطقة عيدانٍ تحترق، ورائحة شواء، وأصوات غناء. جَلَبَةٌ أحبّها كثيرًا وأَلِفْتها في أوقاتٍ صيفيَّة قضيتها في التخييم على شاطئ البحر الذي يغسل أقدام الجبال التي تحمل غابات الفرنلق.

لا أنكر القلق وعدم الارتياح، بل بدوْت متذمِّرةً؛ وهذا ما كانت تمقته خاتون وقد أعطتني تمرينًا سهلًا للغاية: حالما أشعر

بضيقٍ أبدأ بعدِّ النِّعم. تسلَّلت وسط مخيَّمٍ قريبٍ من كهف الدبَّة، وكان الاستدلال عليه سهلًا عليَّ، فالجميع يعرفه. ولا أعتقد أنَّ أحدًا من هؤلاء الطلبة المتحمِّسين يعلم شيئًا عن الحرشافة.

علمتُ أنِّي في المكان الصحيح حالما رأيت كوكبة بنات نعش تلمعُ في الأفق الشماليّ. إذن، الكهف في مواجهتها. كلّ ما رأيته: فمٌ فاغرٌ معتم، لا بدَّ هو باب الكهف، وكان عاليًا ولا يمكنني تسلُّق المكان ولم يكن ذلك مطلوبًا. فقط عليَّ مواجهة بنات نعش ونطق تعويذتي.

أشرقت الشعرى اليمانيَّة في برج العقرب. إذن هنا يبسط سطوته كوكب المرِّيخ الحارّ الانتقاميّ المزاج والجاهز للفتك وإعلان الحرب. يحكم من البلاد الحجاز والهند وبادية العرب إلى بلاد اليمن ودمشق وتونس وطنجة، ستهبّ ريحٌ شرقيَّة ثلاثة أشهر، وبعدها تنعطف وتنقلب إلى ريحٍ غربيَّة يخشاها الناس، تملأ السماءَ سحبًا وغمامًا وبرقًا ويقلّ ضياء الشمس. وتكون أكثر السنة متسحِّبةً بالغمام، وتكثر الشهب وجريانها، ويطلع الفرات، ويرخص الزيت والشراب ويقلّ العسل، ويكثر موت النساء، ويُخشى على كلِّ من يبدأ اسمه بـ «ميم أو نون أو حاء».

تسلَّحت بحرفِ «القاف» شديد البأس. حرفٌ صامت، ذكر ناريٌّ حارٌّ يابس عند اليونان ينعت بـ «حرف القتل»، له أسرارٌ عجيبة في هلاك الطاغين. قيل إنَّ الإسكندر قد نقش هذا الحرف على خنجره ستّ عشرة مرَّة في سطرٍ واحد. يُحمل هذا الحرف الفتَّاك في حالات المواجهات الرهيبة. كتبته على نحاسٍ أحمر يوم الثلاثاء في ساعة المرِّيخ.

«لعلَّكِ أنتِ المرشَّحة القويَّة لمعرفة ما أفشيه، وما أخفيه».

جفلتُ في مكاني، لم أَرَ أحدًا!

نطق الصوت الحادّ بتلك الكلمات بتأنٍّ مقصود، وبطء من يريد أن يُفهم من أمامه شيئًا، شيئًا لا يُقال، على الأقلِّ في الوقت الحاضر.

أمعنت النظر في العتمة، وتذكَّرت عبارةً لأُمِّي: «تنعكس خياراتنا على وجوهنا».

إذن أيّ وجهٍ سيكون للحرشافة؟!

«الآلام.. حاجةٌ بشريَّة خالصة، لأجل إيقاظ وعينا النائم، فتعلم من تكون وإلى أين تذهب».

أيّ جنونٍ وضعتني خاتون في عالمه؟ قوَّة الحرف العميقة ونبله المبدع، نبل الخلق والذوق راح يلفِّق لي الأطياف بمثابرة عبقريَّة. تبيَّنت طيفها خفيفًا أعلى صخرة ليست بعيدةً عنِّي، وتشكّل عتبةً لمن يريد أن يتسلَّق إلى الكهف.

ظلَّ الطيف في مكانه، بينما حرَّك يديْه مثل مِجسٍّ هلاميٍّ، يتحسَّس حضور أشياءَ لامرئيَّة، ولعَّب أصابعه مثل محرِّك دمى محترفٍ وهو يخاطبني بينما انعقد لساني:

«الأفكار ليست شيئًا يقطن الرأس، إنَّها تحتلُّك وتنتشر في كلِّ أنحاء جسدك، تتدفَّق من عيوننا، تُردِّد صدى كلام القلب فنغدو ظلالًا لأفكارنا».

هبَّت الريح مثل غمغمةٍ محتالةٍ تريد أن تقول شيئًا، سألتُها دون أن أفهم لمَ سألت:

«هل تندمين على شيء؟!»

«صرفت وقتًا طويلًا على التفكير في سبب قباحة خلقتي، وكرهت وأبغضت كلَّ من حولي. تأخَّرتُ كثيرًا حتى فهمت أنَّني كنت هنا لاستلام ما هو موجود، ويمكنني تلقِّيه وتوصيله للآخرين..».

ظننتها تلاشت، لكنِّي سمعتها وبالكاد تبيَّنتُ طيفها:

«انظري كلّ هذه الصخور المحيطة بنا، ليس المطلوب إزاحتها، لكنْ هنالك ممرٌّ سرِّيٌّ تركه أحدٌ غامضٌ لنا، ثغرة، نافذة، باب، فتحة توصلنا إلى أرضنا الحقيقيَّة..».

استشعرتُ هيبتها الواجمة الكئيبة. انطفأ بخُّوري فجأةً وتلاشى الطَّيْف.

على الرَّغم من ذهولي، ارتحتُ وأنا أملأ عينيَّ ببريق كوكبة بنات نعش المضيئة في السماء فوق رأسي. أردتُ تلقِّي الإشارات التي نفهمها إذا ما ارتفعنا وتبصَّرنا وتأمَّلنا وتسلَّقنا سلَّم المقدَّس. لا يحدث ذلك إلَّا إذا عشنا بأرواحٍ مستعدَّةٍ ومنفتحة ومطواعة.

11

الجنِّيَّة «قُزَحْ» ساكنة قصر الحير الشرقيّ وأعاجيب جبل البشري وليلة اكتمال قمر الذئاب

تقول المرويَّات الشفاهيَّة إنَّ حجر الأساس لقصر الحير الشرقي رُوي بماءٍ جُلب من عين العقاب، التي كانت في أعلى جبل البشري الذي كان مجلَّلًا بغابات البطم الأطلسيّ واللوز البرِّيّ وأشجار السّويْد.

قيل إنَّ ثمَّة عينًا يفور ماؤها سبع سنين ثم تنضب سبع سنينٍ أخرى، وتلك العين تستحمّ بها العقبان، تغتسل من الزمن ومن الشيخوخة، ويتساقط ريشها بأكمله ثم ينبت من جديد بفضل مياه تلك العيْن.

أمَّا عقارب جبل البشري فإنَّ لدغتها تشفي المفلوج، وكان الرعاة من البدو يجمعون تلك العقارب ويجفِّفونها ويطحنونها

لبيعها في أسواق مدينتيْ حمص ودمشق، لأنَّها إذا خُلطت بالخلِّ وطُلي بها البَرَص والبَهَق تشفيه.

أمَّا قنافذ جبل البشري، فقد كانت أيضًا تُصاد وتُباع حيَّةً عند عطَّاري المدن القريبة. يقولون إنَّ لحمها كان ينفع في علاج الجذام بسبب نوعٍ من الحيَّات البيضاء التي لا تعيش إلَّا في جذور أشجار البطم. كما أنَّه ينفع لداء الفيل والاستسقاء، ودمها يُمسح به من يعضُّه كلب.

أمَّا نحل البشري، فإنَّه يُنتج أجود أنواع العسل الذي كان يُهدى للسلاطين.

واحتطب الناس على مرِّ الدهور أخشاب شجر السّويْد لصنع أجران دقّ القهوة التي يحملها البدو معهم في حِلِّهم وترحالهم، كذلك تُصنع منه أجود صناديق العرس التي لا يأكلها السوس قطّ.

عند أقدام ذلك الجبل التاريخيّ حيث يلتقي مع سلسلة الجبال التدمريَّة، شيَّدَ الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك قصر الحير الغربيّ الواقع غرب مدينة تدمر. ويبعد حوالى مئة كيلومترٍ عن الرصافة.

لم تزل تشمخ أبراجه الأربعة التي تُحدِّد ملامحه كقصرٍ بني بشكل مربَّعٍ تقريبًا، أسوارٌ عالية ومحصَّنة تتجاوز الستَّة كيلومترات وهي تُحيطُ بقصرٍ أشبه بمدينةٍ متكاملة.

بوَّابات وأبراج وجامع وبرك سباحة، وطاحون، وبساتين، وخزَّانات مياه صخريَّة، ومعاصر للزيت، وحمَّامات، وباحات. اشتُهر القصر بزينته من الفسيفساء واللوحات الجداريَّة الفاتنة.

هُجر القصر مع مرور الأزمان، واندثرت ملامح الجمال فيه، بعد أن استُخدم لأسبابٍ عسكريَّةٍ تحصينيَّة من قبل الأيُّوبيِّين والمماليك.

يبدو أنّ ثمَّة أمير قبيلةٍ بدويَّة قبل حوالى مئتي سنة تمترس في خرائب القصر، ولاذ هو وبعض إخوانه بأحد أبراجه. لا تُعرف التفاصيل تمامًا، لكنَّ الشيء الأكيد أنَّه كان ملاحَقًا من جندٍ أحد ولاة دمشق العثمانيِّين. رأى خلال نومه ذات ليلةٍ أنَّ جنِّيَّة بشعرٍ غزيرٍ وكثيف زارته في المنام وأخبرته أنَّ القمر سيكتمل بعد ثلاثة أيَّام، وأنَّ عليه أن يذبح اثنتي عشرة شاة ويرميها للذئاب الجائعة، لأنَّ الجوع سيشتدُّ عليها وستعوي طويلًا، وقد كفلت له السلامة بعد ذلك.

صادف ذلك التاريخ الثاني عشر من شهر كانون الثاني، وكان برد الصحراء قارصًا.

ليلةٌ صافية لا مثيل لها. اكتمل القمر، وكان مُضاءً على نحوٍ رهيبٍ وساحر. علا صوت عواء الذئاب، ورُميت أسفل البرج الشياه لتأكلها الذئاب الجائعة.

سلِم ذلك الأمير من بطش الوالي الجائر، وظلَّ طوال سني عمره يمرُّ بالقصر ويذبح الشياه للذئاب الجائعة، ويرميها من أعلى البرج حيث زارته قزح الغامضة في نومه. أخبره بعض سكَّان المنطقة أنَّ القصر تسكنه الجنِّيَّة قُزَح، وهي كما كلّ أبناء قومها تخاف من الذئاب التي تتواجد بكثرةٍ في المنطقة.

للذئب قدرةٌ بصريَّةٌ عجيبة، ويُقال إنَّه الوحش الوحيد الذي

يرى الجنّ ولا يحيد ببصره عنهم، لأنَّ الجنّ يتقيَّدون بالبصر ويؤلمهم، فلا يمكنهم التحرُّك من مكانهم. وقزح التي سكنت القصر طلبت من ذلك الأمير ذبح الشياه وتقديمها للذئاب الجائعة عربونَ سلام بينها وبين ذئاب جبل البشري. ظلَّ الأمير البدويّ يُقدِّم تلك الأضحية في كلِّ عامٍ في التاريخ ذاته، حيث تلمع في السماء ثمان وعشرون نجمة هيَ كوكبة برج الجدْي، وتتلألأ نجمةٌ بعيْنها على نحوٍ طاغٍ، تُرسل بريقًا لا تشوبه شائبة هي نجمة سعد الذابح على قرن الجدْي.

* * *

يختلف العرَّاف عن الساحر. العرَّاف يحاول قراءة الغيب، أمَّا الساحر فهو الذي يحاول امتلاك مفاتيح السيطرة على قوى غيبيَّة ويُسخِّرها لمشيئته. لهذا قلتُ لكم إنَّ أُمِّي ساحرة.

كان العرب يفرِّقون بين العِرافة والكِهانة. فالكهانة تنظرُ المستقبلَ أمَّا العِرافة فتنظرُ الماضي. أتصدِّقون خرافةً تقول إنَّ أخبار العرَّافين يتلقُّونها من الجنِّ الذين يصعدون صوب السماء، ويتنصَّتون ويلقون ما يعرفونه في أذن الكاهن؟ أَوَ يكون الأمر هو اختيار جنِّيٍّ لأحد البشر والاتِّصال به وإخباره بالقادم؟!

ما أتحدَّث عنه هنا هو عن السَّحَرة الكبار أصحاب القوى التي تبدو أنَّها تتَّكئ على التخمين أو الظنّ أو الحدس أو التقدير أو الاستدلال! أُحدِّثكم هنا عن قوى خارقة داخل العرَّاف الذي حملت جيناته شيفرةٌ من الزمن السحريّ الغابر، يوم كان البشر يمارسون العِرافة كممارسة الكتابة والطبخ ونسج الحرير وصنع الخمر وخَبْزَ الخبز، كانوا يراقبون كلّ شيءٍ منغمسين في الطبيعة

منقادين لأبسط ظاهرة بانسجامٍ وتناغمٍ رهيبيْن.

توهَّج ضوء الشعرى اليمانيَّة والقمر في برج الدلو الذي يمسك بخيوطه كوكب زحل، ويحكم من البلاد البصرة وأرض فارس والبلاد التي تليها والحجاز. ستهبّ ريحٌ حارَّة يقال لها «البطليوس» من جهة اليمن، ويكون الهوى غليظًا شديدًا ويخسف القمر وتنكسف الشمس وتكثر العواصف، ويكثر الفزع بين الناس والأسقام، ويعزّ الطعام ويغلو الزيت والشراب والعسل، ويُخشى على كلِّ من يبدأ اسمه بـ «ألف وعين وفاء».

انداحت رائحة البخُّور متراقصةً مع دخانه. تحت سماءٍ مضاءةٍ بمجرَّاتٍ خفيَّة المدارك، بعيدة المسالك، نطقتُ بأحرفي السرِّيَّة الممسوكة بأنامل زحل الغامض: «الألف والباء والجيم والدال». بينما تمترستُ بألفة حرف الغين مكتوبًا على صفيحةٍ مثلَّثةٍ من الفضَّة محمولة على كتفيّ، شعرتُ ببرودة هذا الحرف الرطب السعيد وخواصِّه للمسرَّة والبركات ونموِّ الأموال والزروع والربح.

أخذتُ طريقي صوب القصر وأنا مأخوذةٌ بصفاء السماء وعبقريَّات الكون وروائع الطبيعة. معرفة الجمال ورؤيته تزيد من قوَّتنا، وتشفينا الدهشة التي تتسبَّب بها الأشياء الجميلة. كنت كلَّما أُصبت بصداعٍ تقول لي خاتون: «اخرجي وتأمَّلي توهُّج شقائق النعمان الحمراء».

لا بدَّ من أنَّ الفنَّ منحة مدبِّر هذا الكون الأزليّ. هو أسلوبٌ ذكيّ لإيداع أمورنا الحميمة في مكانٍ ما. لهذا، اخترتُ الكتابة

لأروي لكم عن رحلتي الغريبة. يعيش العالم روايةً متواصلة لا تنتهي ونحن أبطالها. تنتهي أدوارنا لنأخذ أدوارًا جديدةً في صميم خطاب المستقبل الكونيّ. أخشى أحيانًا أن أكون من أولئك الحالمين الذين يعتقدون أنَّ بإمكانهم إنارة العالم بعود ثقابٍ صغير.

تصلَّبت ركبتاي وأنا ألمح تشكُّل الطَّيْف المتذبذب والمتراقص. إنَّها طبيعة النار المراوغة، نبوغ السخونة ونباهة الحرارة، قوَّامة الجنِّ المتعالين علينا. نحن أبناء الطين والحمأ مطالبون بالتخفُّف من الكثير من الحياء، لنعترف بضعفنا. علينا أن نتبِّل أنفسنا بكلِّ دهائنا وحبِّنا لنضفي على الطين زخرفةً وقوَّة..

كان إغواء اللقاء سيقلّ لولا أنِّي علمت أنَّها من قوم الجنِّ. وها أنا أمام هذه الورطة الناريَّة. لاح الطَّيْف النحيل والحيويّ، وشعرت بصفائها ووجدانيَّتها الصادقة وهي تقول:

«ما تعتقدين أنَّه أنتِ، هو قناعٌ موقَّت، زيّ، رداء.. سيأتي وقتٌ وتخلعينه وتحلِّقين».

ارتحتُ للطَّيْف الذي ومض. انبرى يتكلَّم على فتنة التحليق. وعاد للكلام، مستثارًا ونشطًا، دون أن ينتظر منِّي كلامًا:

«سيكون هنالك وقتٌ تكون الروح فيه جاهزةً للتحليق عندما تفهم أخيرًا أنَّها زائرة».

قلتُ ما شعرتُ أنَّه يوافق كلامها:

«نحملُ ذرَّاتٍ من الطاقة المقدَّسة. نحن امتدادٌ للكون الكبير، قبضةٌ من نثار النجوم التي تلمع فوق رؤوسنا..».

غدا الطَّيْفُ أكثر ترقُّقًا ووهنًا وأثيريَّة، وسمعت:

«نتألَّم بسبب النسيان. أن تنسى من أنت وما تملك. الانشغال بالبحث عن أشياءَ ليست لنا، بذلك نضيّع أنفسنا. السعداء هم من فهموا أنَّ كلّ شيءٍ داخلهم أدركوا القطعة المقدَّسة التي تكوِّنهم».

قلت بحماس: «التعساء هم الذين يظنُّون أنَّهم يحتاجون أشياءَ يملكها غيرهم، يبتعدون عن أنفسهم، يقطعون مسافاتٍ طويلةً في كلِّ الأنحاء دون أن ينتبهوا إلى أنَّهم ضاعوا عن أنفسهم».

كم بدا طيفها شجيًّا ووديعًا وهي تقول:

«سيأتي يومٌ وتنطقين بعبارة: «وجدتُ نفسي». إنَّها تذكُّرٌ خالص. تذكّر ما كنَّاه ذات يوم. نمدّ يدنا لذلك الآخر الذي كُنَّاه. الآخر الحميم المتواري بين أضلاعنا وينتظر أن نتذكَّره.. حزن التذكُّر والنسيان شاملٌ في هذا الكون ويُحكِم سلطته على كلِّ كائناته، سواء كنَّا من نارٍ أو من طينٍ أو ماءٍ أو هواء..».

خلَّف الطَّيْف وراءه سرابًا ضبابيًّا وبخارًا فضِّيًّا من الإدهاش.

استسلمتُ بخشوعٍ لجمال السماء المنيرة، فوق صخورٍ واثقة من نفسها، ومن طموحاتها الجسورة نحو السماء. الصخور الشاهقة هي السيِّدات المتوحِّشات لأمكنةٍ لم تنسَ ماضيها السحريّ. لا يمكن أن نزيح فكرة «الخرافة»، بينما نتأمَّل قصر الحير عن بُعد، حيث يمكنك رؤية النجوم الأربع التي تحرس الجهات: أربع نجومٍ هي النجوم الملكيَّة كما يُسمِّيها كتاب

السَّحَرة. وهي النجوم التي تحرس الاعتدالات والانقلابات الشمسيَّة. نجم الشعرى اليمانيَّة حارس الشرق. نجم السِّماك الرامح قائد الشمال. ونجم النسر الطائر حارس الغرب. بينما نجم فم الحوت يحرس الجنوب ويتسيَّده. تطلَّعتُ في الجهات الأربع.

12

شبح ثريَّا العسليَّة في عزبة الرومان
عرَّافة بادية حمص

في نهاية صيف 1983، انقلبت على طريق حمص ـ حماة سيَّارة مرسيدس 230 موديل 1978، وبصعوبةٍ انتُشلت جثَّة السائق البدين، وجسدٌ لسيِّدةٍ في نهاية الخمسينيَّات من عمرها، يحمل رأسها أغزر شعر أسود يمكن أن يحمله رأس امرأة، بينما سال الدم من أنفها الأقنى والبارز الذي زُيِّن بفيروزةٍ مُحاطةٍ بإطارٍ من الذهب. ترتدي ثوبًا من الحرير الأزرق الموشَّى بالفضَّة، ويزدان رسغاها بأساور الذهب التي تغطِّي المعصم. فاحت على الرَّغم من الموت رائحة البخُّور والعطور الثقيلة من قماشة ثوبها ومن شعر رأسها، كما لو أنَّها من عطر. اضطرَّت دوريَّة الشرطة إجراء تحقيقٍ لمدَّة أسبوع لاستعادة ليرات الذهب التي كانت مضفورةً بجدائل المرأة الميِّتة، حيث اختُلست على عجلٍ مصوغات تلك

المرأة الشهيرة التي لم تكن إلَّا عرَّافة منطقة حمص التي عاشت في قريةٍ صحراويَّةٍ قفراء تحمل اسم عزبة الرومان. سكنت ثريَّا قصرًا بستِّين غرفة! ولُقِّبت بالعسليَّة بسبب لون عينيْها العسليّ الضارب إلى صفرةٍ غريبة، مشكِّلًا تنافرًا كبيرًا مع سمرتها ولون شعرها الأسود الغزير ووجنتيْها البارزتيْن وذقنها الناتئ وقامتها الهيفاء..

* * *

كانت أبسط الأشياء تتحوَّل بين يديْها إلى شيءٍ عجيب. يمكنها أن تبدأ ببعرة جمل! تنقب الواحدة منها وتجعل فيها بزر الخسّ والجرجير وحَبّ الرشاد، وتحفر لها وتسترها بالتراب، وتسقيها، فتنبت الأنواع الثلاثة على ساقٍ واحدة.

كانت ثريَّا واحدةً من ابنتيْن لامرأةٍ قُتلت بسبب الخطيئة.

على الرَّغم من أنَّها ابنةٌ لرجلٍ وجيهٍ ومعروفٍ بين أبناء قبيلته، لكنَّها لم تتربَّ في كنفه كابنةٍ مدلَّلة كما يحدث عادة، والسبب أُمّها.

كانت طفلةً عندما استيقظت ذات يوم على صوت إطلاق رصاصٍ كثيف، ولغطٍ وضجيج. فعلتها أُمَّها وهربت مع رجلٍ غريب.

عند البدو، مثل تلك النساء يُقتلن عاجلًا أم آجلًا. فقط ثمانية أيَّام مرَّت، ومساء اليوم الثامن أُرديت الأُمّ قتيلةً على مشارف مدينة حماة. ترصَّدها الزوج وأشقاؤه بينما هي تجلس في سيَّارةٍ يقودها الرجل الذي فرَّت معه. على الرَّغم من تنقُّبها عرفوها. أمطروا السيَّارة بالرصاص. انقلبت بهما، ونزل الزوج

المغدور، وفرَّغ مخزن بندقيَّته عبر بلَّور السيَّارة المهشَّم، وضاعت ملامح وجهها الممزَّق بالرصاص، وبعدها أُحرقت السيَّارة بالزانين علنًا وغُسل العار بتلك الطريقة.

من عادة البدو أن يبادروا هم بقتل ابنتهم الزانية، لكنَّ تلك الزوجة كانت يتيمةً، لديها شقيقةٌ واحدة متزوِّجة في قريةٍ بعيدة بعض الشيء.

لم تكن الشقيقتان من بنات الذوات، لكنَّ جمالهما الفريد جعلهما زوجتيْن لرجليْن مهمَّيْن. جاءت الأخت الشقيقة تريد أخذ البنتيْن عندها. فهي تعلم كيف ستعيشان في كنف أبيهما المطعون في شرفه.

كانت البنت الكبرى في السادسة عندما دُهست بسيَّارة أبيها صباح اليوم الثاني لمقتل أُمِّها. ليس غريبًا على البدو التخلُّص من ذرِّيَّة الزانيات، فهم يعلمون أنَّ الجينات ستتسرَّب في الدماء بإصرار الطبيعة العمياء، إضافةً إلى أنَّ ابنة المرأة الزانية قلَّما تحظى بفرصٍ للزواج. ستعيش في عار أُمِّها.

عندما وصلت الشقيقة مع زوجها، كانت الطفلة المدهوسة مرميَّةً قرب البئر.

بينما قابلتها النساء برمي الحجارة والشتائم، ولم يشفع لها أنَّها برفقة زوجها الذي يُعدّ صاحب شأن، بين القبائل. عادت وهي معفَّرة بالتراب والدموع.

بعد عشر سنوات، استطاعت أن تسحب الابنة الثانية التي كانت وقت موت أُمِّها بعمر الثالثة فقط. عندما أتت بها عقب وفاة الأب بحادثة إطلاق نارٍ طائشة، كانت الفتاة بالكاد تمشي

على قدميْها بسبب فقر الدم والأعمال الشاقَّة التي كانت تُكلَّف بها. بينما جسدها لم ينجُ من عذاب جدَّتها وزوجة أبيها وعمَّاتها، كلّ واحدةٍ منهنَّ تركت تذكارًا، كأثر سيخٍ مُحمّى على ذراعها، أو أثر عقب سيجارةٍ في باطن كفِّها.

قُصَّ شعرها كالصبيان. لم يُسمح لها أن تحمل جديلةً كبقيَّة الإناث. بالكاد حظيت بقليلٍ من الحنان من زوجة عمِّها التي تربطها قرابة دماءٍ بعيدة بأُمِّها، وتنتمي لعشيرة أخوالها نفسها. مرَّرت لها تلك المرأة سرًّا بعض الأكل والثياب، ولم تمنع ابنتها من مصادقة ثريَّا الصامتة.

مرَّت ثريَّا بكلِّ تلك الظروف التي تقتل الإنسان الضعيف، بينما تُحوِّل السَّوِيَّ إلى وحش.

كانت الفتاة على الرَّغم من كلِّ شيءٍ قد شبَّت على نحوٍ مبهر. كلّ شيءٍ فيها كان عدوانيًّا، متطرِّفًا، بالكاد تتكلَّم، لا تبكي مطلقًا. وكان لديها أمنيةٌ وحيدة: أن يطول شعرها وتضفره معطَّرًا بالقرنفل.

عاشت عشر سنوات أخرى في كنف خالتها التي بذلت كلّ ما في وسعها لتعويضها عن القسوة التي مرَّت بها. أخذتها إلى مدينة حماة، اشترت لها أحسن الأقمشة، وزيَّنتها بالذهب، وعطَّرتها، دلَّلتها، لم تكلِّفها بأيِّ عمل، بالكاد كانت تُحرِّك ملعقة الخشب في قدور الطبخ، لا أكثر.

في تلك القرية النائية على تخوم الطريق الواصل بين مدينتيْ حمص والرقَّة، ثمَّة عرَّافة عجوز اسمها «يازي»، تُمارس السحر الأسود لقاء مصاغات الذهب.

قبل عدَّة سنوات من ذلك التاريخ، اقتيدت يازي إلى مخفر الشرطة، بعد أن علم بحقيقة ثرائها ضابطٌ برتبة رائد يُدير ناحيةً قفراء لا يستطيع أهلها حتى أن يدفعوا الرشاوي، لفَّق لها تهمةً بعد أن دفع إحدى زائراتها لتُقدِّم شكوى رسميَّة بالمخفر تتَّهمها أنَّها أخذت منها إسوارة ذهب لقاء تميمةٍ سحريَّة بغيضة عبارةً عن خفَّاشٍ مجفَّفٍ حُشِيَ بأوراقٍ عليها كتاباتٌ غريبة.

سُحبت العجوز يازي إلى المخفر وحلقوا شعرها، وأُهينت وضُربت، ولم تخرج إلَّا وقد اعترفت للرائد بمكان ثروتها التي قيل إنَّها كمِّيَّةٌ رهيبةٌ من الذهب.

خرجت يازي من تلك التجربة وقد أقسمت على أن لا تمارس السحر ولا تقدِّم خدمات العِرافة. النبوءة الوحيدة التي ألقتها كانت على مسامع أهل القرية لتصل مسامع الرائد، وتتحقَّق تلك النبوءة التي كانت أشبه بلعنة. أخبرتهم أنَّه سيعيش طويلًا، لكنَّه سيشهد احتراق فلذتي كبده بأمِّ عينيْه. حدث ذلك بعد أربع سنوات، فقد رشده وسُرِّح من الشرطة وغادر المنطقة، اختفى ذكره وأثره.

كانت تلك المرأة التي كفَّت عن عمل السحر، تطبِّب فقط من يقصدها، وتضرب بالرمل بين وقتٍ وآخر، تراقب الحياة من بُعد، لا تخالط أهل القرية الذين ينفرون منها بسبب علمهم أنَّها لا تقرب الصلاة ولا تصوم.

كان منزل تلك السيِّدة عبارةً عن غرفتيْن من الطين، تداعت إحداهما من معاول عناصر الشرطة بعد أن اعترفت تحت الضرب والتعذيب بخبيئتها من الذهب.

لأنَّها سبق وأن قدَّمت خدماتها للخالة ثريَّا، خلال ولادتها ومساعدتها على الحمْل لتُنجب ذَكَرًا تاقت لإنجابه عقب ستّ بنات، فقد كانت تحظى برعايتها بين وقتٍ وآخر. فترسل لها الجبن واللبن واللحم كلَّما أولمت لضيوف زوجها الذين لا ينقطعون.

لا أحد بالضبط يعرف كيف ولماذا انعقدت تلك الصداقة المتينة بين العجوز الطاعنة يازي والشابَّة اليافعة ثريَّا، التي غدت تتردَّد عليها كثيرًا.

تعلم الخالة جيِّدًا أنَّ يازي لم تكن تمزح عندما قالت لها: إنَّ ثريَّا سوف تتزوج قريبًا، وستعود وتنتقم من الذين آذوها.

على الرَّغم من جمال الشابَّة اللافت، لكنَّ أحدًا لم يتقدَّم لخطبتها. يعلم الجميع عار أُمِّها وكيف أنَّ أباها دهس شقيقتها الكبرى، وبسبب عناية القدر وحده بقيت على قيد الحياة!

كان مفاجئًا للخالة وزوجها وللجميع أنَّ ابن عمِّها الذي لم يرها منذ عشر سنوات جاء بصحبة شقيقته وطلب يد الفتاة، بعد أن توفِّيت والدته وأوصته بالزواج من ثريَّا.

قبل وفاة العجوز يازي، قالت شيئًا لثريَّا العسليَّة لم تنسه قطّ:

«البغض هو الحاكم الحقيقيّ للعالم. اغتنمي لحظتك. ابتعدي عن أولئك الذين يصعِّبون علينا الحياة بتشدُّقهم بالأخلاق والعدل. نفِّذي مآربك بهدوءٍ وبطء، وتسلَّلي على رؤوس أصابعك كمن يخرج من الباب الخلفيّ.

كوني كالعقبان، تأكل أكباد الحيوانات لأنَّها تشفيها من أمراضها. لا ترحمي أحدًا، كلي كبد زوجة أبيكِ، اجعليها

تحزن، اقتليها بالحزن. فتّتي كبدها وافقئي مرارتها بالكمد. لكنْ لا تنتقمي دفعةً واحدة، جزّئي أعداءك إلى لُقَيْماتٍ صغيرة، ثم استلقي في فراشك ولا تفكّري بغير الفراشات».

* * *

حدثت أشياء كثيرة خلال بضع سنواتٍ قليلة: ذاع صيت ثريَّا كعرَّافةٍ وطبيبةٍ ماهرة تشفي كثيرًا من الأمراض. ماتت زوجة أبيها احتراقًا في منزلها، ولم تسعد أخواتها غير الشقيقات لحظةً عقب عودة ثريَّا الرهيبة.

عُرف عنها براعتها باستعمال أعضاء الثعالب التي كانت تعشِّش في خرائب الأقنية الرومانيَّة التي تشقّ خارطة البادية، وتصل الضياع الصغيرة المتاخمة للطريق الواصلة بين حمص والرقَّة.

طبخت دواءً من مرارة الثعالب، وداوت بها المصروع، وعالجت بلحمهِ اللقوة، بينما أذابت شحمه وخلطته بأشياءَ لم تعطِ سرَّها لأحد، وعالجت به داء النقرس..

زارها في منزلها نجوم غناءٍ وطرب وزوجات ضبَّاطٍ كبار في الدولة، ووصل صيتها إلى دولٍ عربيَّةٍ مجاورة. أثرت ثراءً كبيرًا، وبنت قصرًا بستِّين غرفة، وقيل إنَّها في أيَّامها الأخيرة لم تسمح لأيٍّ من أبنائها بمرافقتها في السيَّارة، وقد أسرَّت لإحدى معارفها أنَّها ستموت في حادثة سيَّارة، لكنَّها ستبقى قريبةً منهم.

هُجر القصر ذو الستِّين غرفة. يعلم الجميع أنَّه مسكونٌ بشبحها. لم تؤذِ أحدًا قطّ، لكن مجرَّد ظهورها الشامخ كان مربكًا ومثيرًا للخوف.

* * *

لم تخفت فتنة الاقتراب من قلعةٍ أو حصنٍ أو عمارة شامخة. لا يُخفى الطابع العاطفيّ والخرافيّ للأمكنة النائية والعالية والمطلَّة على الوديان والمشرفة على مسافاتٍ وأمداءٍ طليقة، كما لو أنَّها وليدة لحظةٍ استفاقت فيها الأرض، وتحرَّكت أعمق أهوائها الوحشيَّة، وتشكَّلت تلك الصخور وبُنِيت القلاع.

وجهتي هذه المرَّة كانت «عزبة الرومان» ـ قرية تقع على تخوم بادية حمص، حيث قرى وضياع عمَّر الشركس معظمها، وسكن بعضها البدو. وعزبة الرومان قطنها أبناء قبيلةٍ بدويَّة استقرَّت حديثًا، بدت أساساتها واضحةً للعيان في المكان الممتلئ بالآبار والصهاريج والمغائر الرومانيَّة وبقايا دور وقصور، واستثمر الأهالي تلك الأساسات الحجريَّة الهندسيَّة المتقنة لإعادة بناء منازلهم، والقصر المنيف ذي الستِّين غرفة الذي بنته عرَّافتهم وساحرتهم الشهيرة ثريَّا العسليَّة.

ما زلتُ أُصرُّ عليكم أن تقرأوا ما كُتِبَ هنا على أنَّها أفكارٌ جديدة تُنعش العقول، فلا يمكن للأدمغة أن تتوقَّف عن استيعاب أفكارٍ جديدة لأنَّها تموت إذا لم تفعل ذلك. تعلمون أنَّ ما يُسعد الأطفال هو اللعب، وعندما يولدون فقراء فإنَّ اللعب يخفِّف من وطأة الفقر وقساوته، وهذا بالضبط ما يجب أن نحتفظ به: روح الطفل. أن نعيش الحياة بعاطفةٍ صافيةٍ عذبةٍ متلذِّذة.

لا أعتقد أنِّي سأنسى ليلة طلوع الشعرى اليمانيَّة والقمر في برج الحوت. توهَّج القمر كالنار. رأيت السماء مياهًا صافية حبريَّة المدى. حتى عتمة تلك الليلة كانت مشوبةً بالحبر المزرقّ على نحوٍ غامض. صاحب هذا البرج هو المشتري، وله من البلاد

الروم وناحية الشمال إلى الشام وطبرستان واسكندريَّة وما حولها وما حول اليمن والهند. منابع النيل ومنابع الفرات وتخوم البحار، سيكون تدبير السنة بالريح الشرقيَّة، وتفور الينابيع الساخنة وتزدهر الثمار ويكثر العسل والشراب، وتكثر الحيَّات والظباء والطير، ويغرق خلقٌ كثير، وتخلع الناس طاعة ملكهم ويهلك معه خلق كثير. تكون السنة مخصبةً ويحمل الكرم والزيتون.

أطلقتُ بخُّوري الذي تغيَّرت وصفته، لأنَّ الساحرات يعملن رصدًا لأمكنتهنَّ. وتحسُّبًا لذلك، حمَّلتني خاتون ببخُّور كندروس ومقل أزرق وقسط، ولفَّت ذراعي بحجابٍ مثلَّثٍ لحرف الظاء لأنَّه حرفٌ طاردٌ للسموم. وتمتمت بأحرف كوكب المشتري، الأحرف الذكيَّة القادرة التي تهاجم الموانع، ولها حركات مثل حركات الضارب بالنشَّاب أو الرمح أو الرامي بالسهام.

فاحت الرائحة. اعتدت اللقاء الغامض بالروائح التي يمكنها أن تتودَّد وتغازل، ولها القدرة على اختراق حصانة ومنعة اللامرئيّ. انداح حولي بخُّور متملِّق وذكيٌّ ألِقًا، وبدا الدخان المتصاعد كابتهالٍ من عالم آخر، وتلملمت هيئة الطَّيْف المتُردِّد الذي بدا حذرًا ورزينًا. تكلَّم بصوتٍ جوفيٍّ عميق:

«نملك حيواتٍ كثيرةً لو أنصتنا للصوت الداخليّ العميق وسمحنا له أن يتكلَّم بطلاقة. سنصوِّب كلّ مسارات حياتنا».

أجبتها بما شعرت أنَّه سيُسعدها:

«الموت هو موت الفهم».

«رعتكِ بذكاء خاتون المغوليَّة. تعلم كلّ الساحرات أنَّ عالم

الحقائق روحٌ وقلبٌ وجسد. كلّ البشر مسكونون بشهوةٍ لجسدٍ لا يتغيَّر بمرور الزمن، لحمٌ حيٌّ وشابٌّ دائمًا. ينسون أنَّ الروح هي التي تحسن تغذية هذا الجسد أو العكس. كلّ من عرف ثريَّا العسليَّة ظنَّ أنَّها آذت من ظلموها. غير صحيح، على الرَّغم من براعتي كساحرة بتكتيف العدوّ. يكفيني أربعة عشر حرفًا من اسمه واسم أهله لأمزجها على لوح نحاسٍ أحمر. لو أردت! أنا بارعةٌ في سحر المكائد، لكنِّي ما فعلت ذلك قطّ. كلّ من تأذَّى بسببي، إنَّما أكله كرهه لي وحقده عليَّ».

تذكَّرت الإشاعات السائدة عنها. كان يكفيها «قصب رمَّان ودم ديك» لتصنع الأذيَّة. وها هي تنكر وأنا أُصدِّقها، تابعت كلامها:

«لا شيء يبعث على السكينة في النفس أكثر من الاجتهاد والعمل الذي نحبّه، وهذا ما فعلته. بضع أشياء نشغف بها بحزم تنقذنا وتساعدنا على لملمة أحجار حياتنا؛ فالحياة ليست صبورة، عندما يستعصي علينا فهمها.. تتركنا وتمضي».

سرعان ما مضى الطَّيْف الملول المتعجِّل، وألفيت نفسي وحدي. تشعّ فوق رأسي عقول النجوم الحرَّة. حتى الكون اكتسب جماله عبر ألم التفجُّر، وكلّ ما يلمع هو احتضارٌ نجميٌّ بعيد، وبريقٌ يريد أن يودِّع الكون، وكلّ لمعانه هو انتفاضةٌ أخيرة قبل الغرق الكبير. كلّ السحر الذي تبدو عليه مجرَّتنا هو تاريخٌ من الألم العظيم. بل ينفر الكون من التبلُّد عبر موت نجومٍ وولادة أخرى.

عن حفيدة شعب البجع

وبورتريه أخير لخاتون المغوليَّة

الأقدار كالأنهار التي تتحاذى، يجهل بعضها بعضًا. تحفر مجاريها العميقة التي تبدو متباعدة، لكنَّها تصبّ في بحرٍ واحدٍ. لهذا لديَّ جدَّتان إحداهما ماريًّا حفيدة الشامان، والأخرى خاتون الشمَّريَّة. إحداهما ابنة الثلج والأخرى ابنة الحرارة.

كنتُ دائمًا ممسوسةً على نحوٍ ما. ثمَّة شيءٌ غير مفهومٍ متغلغلٌ في دماغي، شغِفٌ بالانطلاق، يفلت كلّ الخيول من رأسي.

تتراءى لي عبر النافذة أذرع أغصان الشجر متمسِّكةً بشيءٍ من بياض الثلج على الرَّغم من غزارة المطر في الهزيع الأخير من الليل.

استيقظتُ في وقتي المعتاد، الفجر، لأمسك بقوى خفيَّةٍ لا

يمكن للنهارات المسرنمة بالكثرة أن تتيحها. تلك القوى النافرة التي تشكِّل أذرعًا كثيرة: عفاريت، وشياطين، أطياف، أرواح، وأشباح، تُسرِّب لي قوى لا أفهمها لكنِّي أحسّها.

أُفكِّر الآن بخاتون، بعد كلّ هذه السنوات. بينما أطرح على كتفيَّ دثاري الصوفيّ، أعبر دهليز منزلي المعتم والبارد صوب المطبخ. أُشعل الشموع، مثل أُمِّي أتجنَّب كبس زرِّ الضوء. أُطلق البخُور الطيِّب لجذب «اللطائف» وإبعاد «الخبائث».

تُساعدنا الرائحة السليمة على انتقاء القوى التي تحوم حولنا. تلك القوى الغامضة التي تشبه ثنائيَّات الحياة: الخير والشرّ، واللطف واللؤم السالب والموجب. وللروائح قوَّةٌ يجهلها معظم البشر. يمكن للرائحة أن تجذب، وكذلك بوسعها أن تُخيف.

وقت الرائحة الطيِّبة، ضوء الشمعة والقهوة، قهوة الفجر، أملأ الركوة بالماء وأُشعل نار الغاز.. وحده فنجان القهوة يمكنه أن يجمع الشظايا الألف لروحك، ويتيح لك صباحًا جديدًا محايدًا نقيًّا.

انداحت رائحة القهوة. لفَّتني وغمرتني كأنَّها تسأل: أأنتِ على ما يرام؟ تركت الركوة على الطاولة، وقصدت الحمَّام. أشعلتُ ضوء شمعةٍ معطَّرةٍ بالليمون صنعتها بنفسي. فتحت صنبور المياه الساخنة في الحوض الفخَّاريّ الصغير. خلعت كلّ ثيابي. لسعتني برودة شهر آذار. غرفتُ بالطاسة الفخَّاريَّة المياه الدافئة وسكبتها، مع صوت انسكاب المياه، بدأ الصمت بالغناء.

لم يتغيَّر شيءٌ من عادات السَّحَرة. طقوس الخلوة ذاتها.

الحقّ في الاغتسال الصباحيّ. فكّرت بكلٍّ تلك القصص الخرافيَّة عن ربَّات العالم القديم اللواتي يغتسلن في عمق الغابات. كانت الشعوب القديمة تفهم معنى الاستحمام ولذّة ملامسة الماء لذرَّات جسدنا. لمسة الرطوبة للتراب النائم فينا، والنار التي تتجوَّل في دمائنا، والهواء الذي يلعب في رؤوسنا، والماء الذي يلطِّف طيننا.

كلَّما استحممت فجرًا أتذكَّر قسوة الربَّة الرومانيَّة «ديانا» التي مسخت الصيَّاد الذي تلصَّص عليها أثناء استحمامها في خلوتها الكائنة في قلب غابةٍ قصيَّة، مسخته إلى وعل، لاحقته كلابه وقضت عليه. ردَّة فعلٍ قاسية! لكنَّها خرافةٌ تريد أن تُقدِّس طقس الاستحمام، والحقّ بالانزواء مع أنفسنا وأجسادنا ومياه دافئة تُنعشنا وتساعدنا على الاستيقاظ بِرِقَّة.

أحيانًا تتعجَّل إلى «قهوتك».. كما لو كنت متأخِّرًا عن الحياة كلّها. عدتُ إلى أوراقي وأشعلت المزيد من الشموع، بينما يتبعني الصمت بإخلاص، أطلقت المزيد من بخُّوري، سَكَت كلّ شيء، وتكلَّمت الرائحة:

يتناهى إليَّ عبر الذاكرة صوت أُمِّي وهي تفتتح أمسياتها بتلك العبارات التي توزِّعها على الزائرين، مثل:

«فلنشرب قهوتنا، على الرَّغم من أنَّ بعض الأحلام يشوِّهها الصحو..

أهمّ ما في الصباح: أن تكون قهوتك وابتسامتك أوَّل القادمين..

انهض صباحًا، واتَّخذ قرارًا سهلًا! كن وردةً عبقة».

كتبت: هنالك طيفٌ لامرئيٌّ مثل عصفورٍ ينتظر فتات الخبز. لا يمكن أن تنقصني الكلمات لأُخاطبه. لا بدَّ من أن أخبركم عن خاتون أشياء لم أقلها سابقًا، أشياء تُفسِّر لقبها.

وقبَّعة من اللباد وثلاث كوبيكات من عملة وطن أُمِّها:

خاتون حفيدة شامانٍ بوراتي، وعرَّافة اشتهرت في الشمال اسمها خاتون الشمَّريَّة.

لديَّ جدَّتان: إحداهما من أرضٍ ثلجيَّةٍ بعيدةٍ جدًّا، والأخرى من أرضٍ حارقةٍ قريبةٍ جدًّا!

تنتمي جدَّتي «ماريًّا» والدة أُمِّي إلى شعبٍ يقطن تلك البقاع الصقيعيَّة على ضفاف نهرٍ اسمه «لينا» في أقاصي شمال روسيا. تعلمون أنَّ مدينة حلب، عاصمة الشمال السوريّ، استقبلت هجراتٍ متنوِّعة في مطلع القرن العشرين: شركس وأبخاز وشيشان وتركمان وداغستان وآذريِّين وبوشناق وكُرد وأرمن وتُرك هاربين من أتاتورك وروس فارِّين من البلاشفة.. وكانت والدة خاتون ابنةً لسيِّدةٍ هربت مع حبيبها عقب الثورة البلشفيَّة.

ما تعرفه أُمِّي خاتون عن جدَّتها الثلجيَّة يُختزل ببضعة أسطر: الشابَّة البوراتيَّة «سوميا» ابنة بلدةٍ صغيرة استقبلت على مدى عقودٍ طويلة المحكومين السابقين والمنفيِّين من الفلَّاحين الروس والتتار والبولنديِّين واليهود. دُفنت مشيمتها في قريةٍ بعيدة على ضفاف نهر «لينا». درست في جامعة مدينة ياكوتسك. مدينةٌ فيها ثلاث وعشرون كنيسة أرثوذكسيَّة وكنيسة كاثوليكيَّة واحدة، ومعبدان

للبوراتيِّين، وكانت هي من زوَّار المعبديْن. كانت تركة أبيها، شامان البورات، تتجاوز المئتي ألف روبل في بنك ايركوتسك.

وقعت الشابَّة «سوميا» خلال دراستها للطبِّ في غرام نبيلٍ روسيٍّ منفيٍّ اسمه مورايف أمورسكي. أصرَّت على الاقتران به والرحيل معه. لم يمنح لها أشقَّاؤها أكثر من ألفي روبل، وغادرت بصحبة زوجها في رحلةٍ لم تُفكِّر في نهايتها. وتركت خلفها آلافًا من قطعان الأغنام والماعز ومئتيْن من الخيول.

ما تعلمه خاتون أنَّ جدَّتها وصلت مدينة حلب في 1919 دون النبيل الروسيّ الذي أُغرمت به. ومعها طفلةٌ اسمتها «ماريًّا»، وتعمَّدت كمسيحيَّةٍ أرثوذكسيَّة، وعاشت مع طفلتها في أحد أحياء الأرمن في السليمانيَّة. اشتهرت الأُمّ «سوميا» كطبيبة. عاشت بسلامٍ وراحة إلى أن غدت ماريًّا شابَّةً صهباء فاتنة، رفضت نصائح أُمّها وتزوَّجت من إقطاعيٍّ مسلمٍ لديه أملاكٌ كثيرة على ضفاف الفرات.

اختفت «سوميا» وتركت رسالةً تقول فيها أنَّها تريد العودة إلى وطنها الثلجيّ البعيد. ومنذ ذلك الوقت لم يُعرف عنها شيء.

كانت جدَّتي «ماريًّا» هي أصغر زوجات جدِّي. وأنجبت له طفلته الوحيدة، حيث كان كلّ أبنائه من الذكور. وأطلق اسم والدته على الطفلة الوليدة «خاتون» السيِّدة التي اشتهرت بقدراتها التنبُّئيَّة وقراءتها المتمكِّنة للفلك، وكانت تُلقَّب بـ «خاتون الشمَّريَّة» نسبة للقبيلة العربيَّة التي تنتمي إليها.

اشتهرت خاتون الشمَّريَّة بعِرافة الأكباد.

نعم، الأكباد: كلّ ماضينا يعشِّش في الكبد. كلّ ما نكبته ونُخبِّئه من مشاعر سامَّة يستعمر الكبد. كان البشر في الزمن السحريّ يُقدِّسون الأكباد. كذلك الذئاب التي تأكل كبد فريستها أوَّل ما تأكل. والإنسان المرْضيّ عنه ممَّن في السماء هو الذي يُفرح أكباد الآلهة، والمغضوب هو الذي يغضب أكباد الآلهة. لا غرابة أنَّ علماء الآثار يخرجون من الحفريَّات رُقُمًا حجريَّةً على شكل كبدٍ كُتِبت عليها الأحداث السياسيَّة المخرِّبة.

قبل أكثر من نصف قرن، قالت خاتون الشمَّريَّة أشياءَ عمَّا سيُسمَّى لاحقًا أحداث حماة! تنبَّأت بأحداث الموت والقتل في مدينة حماة على ضفاف نهر العاصي بقراءة أمعاء خروفٍ مضحًّى به. وعندما وجدت في الجزء الأيمن من كبد الخروف زائدتيْن فطريَّتيْن على شكل إصبعيْن، ذلك كان فألًا لزمنٍ تحدث فيه فوضى تسبق سقوط سلالة حاكم. وقالت إنَّ أرض الشام لن ترشد إلَّا إذا دخل نجم النيِّرين في برج السرطان، وقابله نجم الفرقدين وبه تُحقن الدماء في البدر التمام.

لم أقابل جدَّتي الشمَّريَّة، لكن أخبرتني عنها أُمِّي المغوليَّة أشياءَ كثيرة.

كم يؤلم الغيب قلوب البشر! قرأوا كلّ شيء: النجم والضوء والغيم والسماء والشجر والكبد والأمعاء! لا تستغربوا، فقد وُجِدَ على لوحٍ طينيٍّ في حفريَّات العراق كتابةٌ تقول: (إذا كانت الأمعاء شبيهةً برأس خمبابا فإنَّ سرجون سيغدو سيِّد البلاد.)

تربَّت أُمِّي بعزٍّ ودلال حتى عمر السابعة عندما توفِّي البيك

المسلم، وعُزلت ماريًّا مع ابنتها والعجوز خاتون في منزلٍ طينيٍّ متواضع، وحرمت من تركة أبيها. خلال سنواتٍ قليلةٍ، ذاعت أنباء عن قدرات «ماريًّا» التنبُّئيَّة، وغدت تكسب قوتها من خلال قدراتها الخارقة.

وُلدت أُمِّي بالضبط في سنة 1955، وكبرت في ذلك المنزل الطينيّ بين القلعتيْن على ضفاف الفرات. غدت شابَّةً غريبة الأطوار وتتميَّز بعينيْن يحملان لونيْن مختلفيْن، كما أنَّ ثمَّة إشاعةً ذاعت عنها عندما كانت صغيرة، إذ قام أحد أشقَّائها الذكور برميها في مياه الفرات، لكنَّها طفت على سطح المياه دون أن تغرق! وتكرَّرت الحادثة أكثر من مرَّةٍ دون أن تسحبها مياه الفرات، على الرَّغم من أنَّها لا تُجيد السباحة!

تدخَّلت العجوز خاتون الشمَّريَّة جدَّتها لأبيها التي كانت صاحبة سطوة، وقامت برعايتها عن قرب، وكفَّ أشقَّاؤها عن أذيَّتها وابتعدوا عنها.

عاشت أُمِّي خاتون وحيدةً مع جدَّتها «الشمَّريَّة» وأُمِّها «ماريًّا» التي كانت تدخل في حالة هلوساتٍ غريبة، وتتكلَّم بلغةٍ أعجميَّةٍ غريبة، وراحت تُردِّد دائمًا أنَّها تريد الذهاب إلى وطن أُمِّها للبحث عنها! حاصرتها عقدة الذنب وحرمتها من هناءة العيش. تتذكَّر أُمِّي جيِّدًا ما ردَّدته أُمّها ماريًّا في الأيَّام الأخيرة قُبَيْل اختفائها.

ردَّدت ما كانت تُخبرها به «سوميا» ابنة الشامان. فهمتُ كيف انتشر اسم «شامان» بين القبائل العربيَّة في مطلع القرن العشرين،

إذن لم تكن سوميا وابنتها الوحيدتيْن. فقد وصلت عدَّة هجراتٍ من أواسط آسيا وسيبيريا عقب التغييرات الشاملة التي عصف بسنوات مطلع القرن.

قرأت كثيرًا بعد سنواتٍ طويلة عن شعب البورات، عن طقوسهم، ومعتقداتهم. وكلّ ما كانت تقوله أُمِّي وتتذكَّره على لسان جدَّتي ماريًّا كان متَّفقًا مع ما قرأته وما قالته:

توفِّي الشامان وسُحبت جثَّته على زلاجات تجرُّها جياده العزيزة في مكانٍ منعزلٍ في الغابة، وأودعت في منزلٍ من جذوع الأشجار والأغصان، وإلى جواره قُتل الجوادان وتُركا لتلتهمهما الذئاب. عاد الأبناء إلى الجثمان المغطَّى بجذوع الأغصان يوم سُمع أوَّل صوتٍ للوقواق، أي أوَّل أيَّار، وتجمَّع أفراد العشيرة وحرقوا جثمان الشامان مع الكوخ الذي غطَّاه.

كانت سوميا تُردِّد دائمًا أنَّها حفيدة «آلتين خان» الذي أرسل الشاي ضمن هدايا إلى آل رومانوف، وهكذا تعرَّف القياصرة على مشروب الشاي.

لعبت الوراثة لعبتها الجينيَّة، وورثت أُمِّي قدرات جدَّتها خاتون الشمَّريَّة وجدَّها الشامان البوراتي، أيَّة أقدار جمعت السلالتيْن؟ لا أعرف!

من الحكايات التي لم أكن أملّ من الاستماع إليها ترويها لي أُمِّي عن جدَّتي «ماريًّا» حكايةُ الصيَّاد البوراتي الذي استراح في عمق غابةٍ قرب جدول ماء تغذِّيه بحيرة بايكال. لمح الصيَّاد ثلاثةً من طيور البجع تحلِّق وتدور وترقص، وحطَّت أخيرًا وخلعت

ريشها، وتحوَّلت إلى نساءٍ فاتناتٍ يسبحن ويلعبن. سرق الصيَّاد ريش إحداهنَّ، ولم تستطع أن ترافق أختيْها في الطيران. أمسك بها وامتلكها وأخذها، وأنجب منها ستَّة أطفال.

في يومٍ اجتاح الحنين جوارح المرأة البجعة إلى قومها، فأسكرت زوجها وسألته عن المكان الذي خبَّأ فيه ريشها، فأخبرها، فما كان منها إلَّا أن ارتدت ريشها وحلَّقت. حاولت ابنتها إمساكها من قائمتيْها، لكنَّها أفلتت وطارت، وظلَّ أثر يد الابنة أسودَ على قوائمها حتى اليوم. يحلِّق البجع لكنَّ قائمتيْه السوداويْن تذكِّران بأثر ابنةٍ من صلب البشر.

آخر شيءٍ قالته الأُمّ البجعة لابنتها البشريَّة: «في كلِّ وقتٍ عندما يولد القمر، ستسكبين لي حليب المهر والشاي وتنثرين التبغ الأحمر».

هنا بالضبط يمكن الانتهاء من رسم بورتريه لأُمِّي.

كتبتُ بنهم. سهرتْ معي كلّ النجوم. لن تتخلَّى الكواكب عن قلبٍ لا يتوقَّف عن الإيمان بأنَّه يُبدع قصَّته بعيدًا عن الندم. هذا بالضبط ما منحتني إيَّاه خاتون المغوليَّة: حياة لا ندامة فيها. حياة مضاءة من نجومٍ يقول العلم إنَّها ماتت منذ زمنٍ بعيد، ونحن نرى ضوءها عبر لعبةِ الزمن وحسب. هل تلتقي النجوم الميِّتة في جنَّةٍ غامضة؟!

أكتبُ بعاداتِ «ساحرةٍ مجتهدة»، ساحرةٍ تؤمن أنَّنا إذا ما نسينا إشعال شمعةٍ والنظر إلى القمر وتأمُّل زهرةٍ وملامسة قطَّة، فلا مستقبل لسعادتنا.

ذات مرَّةٍ، يبست شجرة رمَّان في حوشنا. سألتُ أُمِّي عن سرِّ موتها! قالت لي دون تردُّد: «يبدو أنَّها لم تتخلَّص تمامًا من أوراقها وضعفها. خبَّأت مشاعرها وانزاحت إلى العمق حتى وصلت الجذور. تسمَّمتْ بسبب حزنها وقلقها وظنونها. التغيّر والتجدُّد قرارٌ تنفِّذه الجذور..!»

يومها صدَّقت الحكاية تمامًا، وعندما كبرت فهمت ما أرادت خاتون قوله لي. كلّ ما نتجاهله ونواريه في أحد غرفنا المعتمة بين أضلاعنا سيظهر على السطح، فيمرض البشر من سمِّ المشاعر. كتبتُ بِنَهَمٍ وجنون، نظَّفت جوارحي من كلِّ السموم.

الكتابة فنُّ تنظيف الأحشاء من السموم. لا جمال مع السمّ. سمّ البغض والغيْرة والكره والحقد. مشاعر سوداء تنعكس في العيون والمشية وحركات الأيدي، حتى الطبخ الذي يطبخه الحاقد يقتل. البشر السليمون هم الذين يرون في أنفسهم تحفًا فنِّيَّة، وأنَّهم من بقايا النجوم التي كانت. يرون أنَّهم من نثار النجوم، وأنَّهم بريقٌ ولمعان، وقدرهم التألُّق.

لا دواء للبشر إلَّا بالأفكار. الأفكار الضوئيَّة هي نجوم الأرض التي تنظِّف السجون المكتظَّة بالقَتَلة والمنحرفين. أفكار النجوم الضوئيَّة توقف الحروب التي يموت فيها الناس دون أن يعرفوا لماذا، ويحارب جنودها وهم لا يعرفون السبب، إلَّا من خلال أوهام تغذِّيها الصرامة والجمود والقناعة الواحدة المتسلِّطة. أُفكِّر بالأطيَاف الاثني عشر التي قابلتها، وأتوقَّف عند حاكمة القلعتيْن. أسلوبها يحكم العالم. احتيال القَتَلَة وهم يبتكرون سلسلةً طويلةً من الأكاذيب التي تساعد أبناء السمّ على حكم

العالم. سمّ الفكرة الواحدة والقول الواحد، سمّ القناعات النائمة على سطح المستنقع.

ألا ترون معي أنَّ الحروب في الخارج ليست إلَّا امتدادًا للصراعات التي تنشب داخل العقول. يتحاربون لأنَّهم يعاقبون أنفسهم التي لم يحبُّوها قطّ. يتحاربون لأنَّهم لا يسامحون، ويعيشون مع سمومهم، مع ضغينتهم وغضبهم ونقمتهم.

لم أزل كما أنا أُفرِّغ ساعةً على الأقلِّ لروحي، لشردة الروح، لهذه النثرة الخالدة فينا، التوَّاقة للتحليق في عالم الأبديَّة. الروح المطمئنَّة هي ثروتنا.

أعرفُ أنَّ تدوين المرويَّات الشفاهيَّة عن قصص أزمانٍ انقضت أمرٌ يشبه التسلُّل إلى الماضي من الباب الخلفيّ، وأنَّ الخيال قوَّةٌ جامحة. لهذا، ستعتقدون أنَّ كلّ ما قيل هنا هو محض خيال!

يعيش الناس حياةً واقعيَّة وأخرى متخيَّلة، وهذه أكثر راحة. كيف لي أن أتجاهل الأطياف التي قابلتها على مدى اثنتي عشرة سنة!؟ المتعة ليست في الأشياء نفسها بقدر ما تولد من الطريقة التي يتمّ تناولها فيها. الحياة متنوِّعة وثريَّة، فكم طريقة يمكننا فيها إخراج نكهة التفَّاحة؟!

* * *

نهضت. أكلت قطعة خبزٍ مع عسل.

فار إبريق الشاي الذي نسيته على المدفأة، فاحت رائحة الشاي مع السكَّر المحروق، حملته إلى منضدتي، صببته بشرود.

فتحت مجدَّدًا اللابتوب، علق بصري في فخٍّ بديعِ الجمال: إنَّها الفوشيا الباهتة لزهرة الكاميليا في جنينتي الصغيرة، ترنو إليَّ كما لو أنَّها نادتني لأنظر صوبها.

أفتح ملفّ الوورد مجدَّدًا. نعم، أنا وحدي أعرف لغز خاتون المغوليَّة. أين اختفت؟!

لأنَّ الكتابة تحرُّرٌ، استشفاءٌ، اعترفتُ أنَّ خاتون اختفت كما اختفت أُمّها ماريًّا وقبلها جدَّتها سوميا، لكنَّ الفرق أنَّها طارت وحلَّقت بهيئة بجعة.

وحدي سأكتب قصَّة خاتون، سأخبرهم بالحقيقة الرهيبة التي عرفتها.

لك أن تطوفي حيث تشائين يا خاتون، يا حاكمة القلعتيْن، يا ثريَّا العسليَّة، يا ساكنة شميميس ويا أميرة أفاميا، يا عميميت، يا زغل، يا ملكة البوغاز ويا قُزَح حارسة قصر الحير.

لأنَّ البُعد، النأي، الاختفاء، أنبل طريقةٍ للاختلاف، اختفيتِ.

تعلمين يا خاتون أنِّي لم أقبل يومًا التصنيف. لا ارتباطات، لا انتماءات، لا تعصُّب، لا ندامات.. حرَّة، بعيدة.. كسفينةٍ تجوب البحار بأشرعتها.

الكلام مهزومٌ سلفًا، الانتصار في الصمت.

هكذا يفرّ الخفراء الذين يبزغون فجأةً لينيروا عالمًا معتمًا.

ها أنا كما أردتني: أعيشُ حاضري بكلِّ ما أوتيت من شغف، وافتتانٍ بالحياة. اخترت نفسي أوَّلًا، وكتبت بشجاعة طفلٍ

يصرّ على التمسُّك بألعابه، وابتسمت، وتجاهلت، وتناسيت.. وأهمّ من ذلك كلّه: غادرت. لطالما رحلت، وغيَّرت، وتخلَّيت في الوقت المشحون بالعواصف. لهذا أفهمك يا خاتون، سأكتب سيرتكِ المذهلة.

نهضت عن منضدة الكتابة. ارتديت جاكيتةً صوفيَّةً سميكةً بعض الشيء، حشوت يديَّ بجيبَي الجاكيتة.. وخرجت. تلمَّست الدرج الخشبيّ الصقيل الذي يؤدِّي إلى جنينة زهورٍ غائبة عن الوعي، إلَّا شجرتيْ بانسي بلونٍ أرجوانيٍّ غامق، وشجيرة زهرة الكريسماس التي لففتها بكيسٍ كبير من النايلون، لأنَّ الرياح الشديدة تتلفها. تعلَّقت عيناي بالسماء، أخذتني الأجرام المضيئة، كواكب سابحة في الفضاء السحيق، سدائم منيرة تستلهم ضوءها من شعاع النجوم التي تعبرها. استطعت تحديدَ بقعةٍ غبشاء من الضوء المتكاثف والمتكتِّل، فبدا مثل قنديلٍ مشعٍّ ومحاطٍ بسديمٍ من الكواكب. إنَّها مجرَّة الأندروميدا التي يبلغ قطرها أكثر من مئتي ألف سنةٍ ضوئيَّة، ويعشِّش فيها نحو ثلاثمائة ألف مليون نجم مثل شمسنا! بل إنَّ بعض العلماء قالوا إنَّ هذه المجرَّة ابتعلت مجرَّةً أصغر منها. ضوءٌ يأكل ضوءًا ويُجنّ البريق واللمعان.

تعلَّم الإنسان الانحناء والرضوخ بفضل العلم الذي كشف الكون الذي لا حدود له.

لربَّما.. وحدها رهافة الروح يمكنها أن تستوعب هذه العظمة! لنسافر عبر الأثير، علينا أن نتماهى ونغدو أثيرًا. كم من اللطف والحبّ والنبل والعطاء نحتاجه لنغدو أثيرًا يسافر عبر المجرَّات؟ تقبَّلوا أفكاري بروحٍ منفتحة تمامًا مثل وجودنا كبشر،

فوجودنا إمكاناتٌ بل عاصفةٌ من الاحتمالات والممكنات!

تحسَّست غصن شجرة الكاميليا، بدا طريًّا وأوراقه نضرة فتيَّة. قُبَيْل العاصفة الأخيرة، لمحت فيها زهرةً ورديَّة كبيرة، أعلم أنَّها زهرةٌ عنيدة، ستلملم الضوء من جهات العالم الأربع لتزهر.

* * *

أحبّ تلك الأوقات الصباحيَّة المبكرة التي تفيض بطمأنينةٍ تجعلني أنظر عبر النافذة، ساهمةً، أُفكِّر بتواريخَ بعيدةٍ مرَّت، لم تعد تعني شيئًا..

أغلي القهوة للمرَّة الثانية. في الخارج، تبدو معركة العناصر دراما لا تنضب. أُعيد تشغيل شاشة اللابتوب، وأفتح ملفّ الوورد، ماذا أُسمِّيه؟! بشغفٍ أعمى اخترتُ «الكتابة». إنَّها برِّيَّة، أدغال، صحارى.. عليَّ أن أتوغَّل. لا يمكنني أن أتعلَّم السباحة على اليابسة. أعرف.. أعرف كلّ هذا، لكنْ لِمَ أُفكِّر فيه الآن؟

الكتابة متعة.. كتبت عدَّة روايات، لكنْ هذه المرَّة انعطفت على نفسي. اقتحمت غابتي، وكشفت عن البحيرة السرِّيَّة حيث تحيا بجعاتٌ متوحِّشات، إحداهنَّ أُمِّي، التي منحتني اسم نهرٍ ثلجيٍّ في شمال الأرض اسمه نهر «لينا». هناك يدفن البورات مشيمة مواليدهم، ولديَّ جدَّةٌ دُفنت مشيمتها هناك!

اتَّصلتُ بناشرتي:

ـ «صباح الخير، رنا».

ـ «أهلًا أهلًا، لينا، كيفك؟»

احترت ماذا أشرح لرنا! هل أحكي عن شَرْدة الروح، وفروسيَّة الريح، وكبرياء القلاع وهاماتها الحرَّة التي تُديرها في كلِّ الجهات وأبراجها التي تأوي أعتى الأطياف؟ هل أحكي عن رحلتي الخياليَّة عبر التاريخ وهَوَسي بقصصٍ تعود للزمن البشريّ الأوَّل يوم كان السحر حاكمًا؟!

. . .

لا أتذكَّر بالضبط ماذا قلتُ، لكنِّي سمعتها تقول:

ـ «حلو.. كنتِ دائمًا تتحدَّثين عن الأشباح والساحرات، أخيرًا كتبتِ عن أشباحك!».

ـ «نعم، نعم، كانت ساحراتي مثل يرقاتٍ صغيرات.. كبرت الآن».

انتهت المكالمة وأنا أُفكِّر. فجأةً، أيقظتُ كلّ الأطياف، سأرتِّب حضورهم في حياتي، وعليَّ أن أوجدَ باستقلال عنهم!

أُشعلُ شمعةً لكي أرجئ سفر أفكاري.. نعم سأترك اختيار العنوان لرنا.

عندما يؤلِّف البشر خرافاتٍ عن عالمٍ آخر غير هذا الذي يعيشونه، حينها يكون اليأس قد تمكَّن منهم، فنحاربه ببدعٍ من صنع الخيال، حيث هناك عالمٌ لا يملكه أحدٌ إنَّما يُروى ويعيش في الخيال.

أنهيتُ المخطوط في المساء. لكنَّ ثمَّة شبهةً علقتُ بها! هل حقًّا انتهى كلّ ما يمكن لي أن أقوله؟ لا أدري كيف رغبت في أن أكون إيَّاهنَّ! أنا من أردت دائمًا أن أبدوَ كما داخلي، كما أراني حقًّا..

نعاسٌ أو تعبٌ أو توقٌ للغرابة، للامتوقَّع، لكلِّ ما ليس عندنا، وما لم نلمسه، دفعني للتوجُّه مرَّةً أخيرة إلى القلعتيْن، إلى حوشنا النائم والمهجور، على ضفَّة الفرات.

* * *

وصلتُ قبيل المغيب بقليل. رحلةٌ طويلةٌ وشاقَّة وفيها الكثير من الحواجز العسكريَّة، مع تحذيراتٍ من مغبَّة التحرُّك ليلًا. اليوم، أُنهي مخطوطي وبلدي مزَّقته الحرب إلى أشلاء. كلّ ذلك تنبَّأت به خاتون المغوليَّة وثريَّا العسليَّة، وقيل إنَّ الحرشافة كانت تخبر غابات الفرنلق عن أحداثٍ دامية ستعصف بكلِّ أراضي الشام.

لم أشعر في يوم أنِّي وحيدةٌ في هذا المكان. كان أصدقائي كثرًا: الحمائم، القَطط، السلطعونات، الضفادع، الجداء، الفرس، السنونو، والصحراء مرشدتي الروحيَّة الكريمة.

استقبلني الشفق ذاته، الأحمر القرمزيّ المطعون بالبنفسجيّ المزرقّ كالستارة الخلفيَّة للقلعتيْن.

اعتدت هنا، رفقة الماعز والخيول والكلاب والدجاج والديوك الروميَّة، والحمائم التي تقطن برج الحمام. هنا عرفت

أروع حالات السكينة، حيث لا شيء لتغيّره، لا شيء لتعتقد به. متعةٌ أن تكون هنا كي تكون وحسب. لا لأيِّ سبب. ليس لديك أيَّة مهمَّةٍ سوى أن تستمتع بوجودك بتنفُّس الحياة وتذوُّقها وأكلها وشمِّها، ما من شيءٍ لنبحث عنه. الجنَّة هنا، الفردوس بين جوارحنا. ينبت نخيل الجنَّة بين ضلوعنا لو أردنا. تعيش دون ملامة، دون اتِّهامات، دون محاولةٍ لاسترضاء آراء الآخرين، دون أحكام. مع الوقت، تعلَّمت كيف أكون «نرجسًا». النرجس الذي يحبّ نفسه حتى النخاع. لم أستهجن في يوم «نارسيس» وهو يعشق صورته في المياه. هكذا هي الحياة، إمَّا أن تكون نرجسًا لا يرحم أو أن تتعفَّن في مستنقع إرضاء الآخرين.

اقتربت..

لم يتغيَّر شيء، البوَّابة المتهالكة، والجدران التي شاخت..

لا أحد، وحدي أنحني على حافَّة الزمن السالف، وحدي أعلم أنَّكِ موجودةٌ، وحدي أعرف أنَّكِ لم تكوني حقيقيَّةً قطّ، أردتِ أن تُخبرينا أشياءَ وأشياءَ من خلال بخُّوركِ وشموعكِ وكلامكِ وعينيْكِ الذكيَّتيْن. نعم، كنتِ امرأةً متنكِّرة، لتنجو. لم يتغيَّر شيء. لم تزل مجتمعاتنا تكره النساء. يحقدون على الكاتبات، والحكَّاءات، ويمقتون الساحرات. نحن عنيدات، متشبِّثات، توَّاقات للنجاة من حريق الزمن.

وقفت في الخارج، يغريني القتام الذي يلفّ المنزل المسكون، أسمع رعشة أوراق الشجيرات المنسيَّة في الداخل، تطلّ بعض ذؤاباتها من الأعلى.

بدت السماء الصافية تتأهَّب لزخَّة مطرٍ خفيفة، تسلَّقت عيناي المسافات الشاسعة بيني وبين القبَّة الصقيلة السوداء المفتوحة على الفضاء، كان هنالك جمالٌ فريد، توهّجُ عالمٍ انتهى، ليبدأ آخر.

غادرت..

أردتُ الوصول إلى سيَّارتي قبل أن يشتدّ المطر. سمعت وقع خطواتي على الحجارة المرصوفة، تشمَّمت روائحَ عبير الزهر مخلوطًا بروائح الأكل: حليب، لحم مقليّ، لا بدَّ من أنَّها تسرَّبت من المنازل المحيطة.

وفجأةً، ومض شيءٌ ما قادمٌ باتِّجاهي، كتلةٌ من الضباب الدخانيّ الكثيف، دوَّامةٌ لشيءٍ مختلف، اصطدم بي واختفى.

جمدت، اقشعرَّ بدني، ارتجفت، اضطرب قلبي، بل بلغ حلقومي، دقَّاتٌ عنيفة نبضت في صدغي، ما كان هذا؟ تابعت طريقي مترنِّحةً وقلبي لا يكفّ عن الخفَقَان بين أضلاعي.. أُفكِّر بشيءٍ يرهبني أن أعترف به لنفسي.

كان البدر فوقي تمامًا، بينما تومض نجماتٌ في البعيد المطلق، حيث لا ذاكرة. نقيَّاتٌ، نظيفاتٌ، لا يتذكَّرن شيئًا، لسن شهودًا على شيء، إنَّما مضيئاتٌ، مضيئات..

(تكتسب الحكايات معناها من خلال الاختلاف لا التشابه، سيلمس القارئ تقاطعات بين بعض القصص والميثولوجيَّات القديمة، وهذا ليس إلَّا دليلًا على أصالة الأساطير في المناطق المذكورة واستمرارها، على الرَّغم من كلِّ الغزوات التي اجتاحت هذه المنطقة دون رحمة.)

فليحضِّر القارئ نفسه للقاء أغرب النساء وأكثرهنَّ جاذبيّةً ونُدرةً في هذا النصّ الفريد الذي ينهل من معارف الحكمة القديمة المغيَّبة، يستلهم إرث «زمن السَّحَرَة». ويفتح بوّابات الماضي السحيق وفق رؤيةٍ حداثيَّةٍ متنوّرة. ستخلخل أحكامنا المسبقة عن هذا العالم المغويّ الذي يحمل مفاتيحَ لشفاء الروح ويحارب «الاكتئاب» مرض العصر. وفي الوقت نفسِه، يطلعنا على قصصٍ وحكايات عشق.

رقصةٌ روائيَّةٌ تحملنا صوب قصورٍ وقلاع تركها الزمن الغابر كتحفٍ تهمس لنا
«كان يا ما كان في سالف العصر والزمان..».

لينا هويان الحسن: روائيّة سوريّة. صدر لها عن دار الآداب «ألماس ونساء» (اللائحة القصيرة لجائزة بوكر العربيَّة)، و«الذئاب لا تنسى» و«البحث عن الصقر غنَّام» و«ليست رصاصة طائشة تلك التي قتلت بيلاّ».

ISBN: 978-9953-69-729-5

دار الآداب